

الطبعة  
الثانية

عماد رشاد عثمان

فريق  
متميزون



E-BOOK

رواية

# اقتحام

شعور دفين مستتر لا يستحق الحب

دار نهضة مصر

مكتبة فريق (متميزون).  
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية  
قام بالتحويل لهذا الكتاب



## كلمه مهمه:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[احصل على حصرياتنا](#)

القتحام

«رواية»

"شعور دفين مستتر لا يستحق الحب"

عماد رشاد عثمان

## عن الرواية..

ماذا لو اقتحم أحدهم حياتك... دون إذن؟

في اقتحام، لا يبدأ الخطر بجريمة...

بل بسؤال.

شاب غامض يفرض نفسه على طبيب نفسي،

لا يطلب علاجاً... بل يقتحم الجلسة،

ويبدأ في تفكيك كل ما نظنه ثابتاً:

من نحن؟

هل نختار... أم نقاد؟

وأين تنتهي ذواتنا... ويبدأ الآخر؟

لكن "حسن" ليس مجرد مريض...

إنه تجربة.

عدوى.

قوة قادرة على التسلل إلى أعماق مناطقك... دون أن تشعر.

ومع كل لقاء...

تبدأ الحدود في التلاشي:

بين الطبيب والمريض...

بين الحب والأذى...

بين السيطرة والانهيار.

هذه ليست رواية تقرأ...

بل اقتحام حقيقي لعقلك،

قد يجعلك تشك في نفسك...

قبل أن تشك في أبطالها.



داخل كل عبثي فوضوي يسخر من كل شيء.. يقبع شخص مثالي مصاب  
بالإحباط!

(جورج كارلين)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



إلى أي مدى يمكنك أن تثق في أقوال مريض نفسي؟! طالما التهمني هذا التساؤل طوال تلك الجلسة الجبرية التي اضطرني إليها هذا الشاب عنوة!

«بس أنا لغيت النهارده باقي حجوزات النفسي» هكذا أجبت (سماح) سكرتيرتي التي أخبرتني لتوها أن هذا الشاب الغريب الذي يقف بالخارج، يثير دهشتها بحركاته المريبة ويصمم على مقابلتي.

- معلىش يا دكتور اعتبرها حالة طوارئ. لم تخرج العبارة هذه المرة من (سماح)، وإنما من فم الشاب الذي تطفل برأسه من باب غرفة الكشف مائلًا بجسده نحوي ليعدم أي محاولة مني للتملص بعد إرهاق يوم طويل بالعمل.

لم ينتظر حتى إجابتي حين أشار ل(سماح) بالخروج وهو يدفع جسده كله داخل الغرفة في حركة مسرحية، فخرجت كالمنومة أمام إشارته.. استلقى على الأريكة النفسية الوثيرة، والتقط أحد الكراسي ليمد قدميه عليه في مشهد عفوي عجيب، قلما أشاهده في غرفة الحكي النفسي التي كان من المفترض أن تكون ساحة للتلقائية والصراحة، ولكن يبدو أن الكل قد يتجمل حتى على الأريكة النفسية.. إلا هو!

لا أكذب حين أعلن أن للفتى طلة استثنائية أجبرتني على متابعته.. شيء ما يستتر وراء تلقائيته، أرغمنا جميعًا على الانصياع. لملمت زغلة عيني، وابتلعت ثناؤباتي أمام تحدُّ ذكوري، فحضور الفتى الطاغى كان يجبرني أن أكون حاضرًا بالكلية لأحمل دفة الجلسة. - هو الانتحار كفر؟! -

بادرني بالسؤال وهو يتابع السكرتيرة التي كانت تغلق باب الغرفة. - لا مش كفر.. الحياة هي اللي كافرة.

لم تكن إجابة اعتيادية لتفلق أمام سطوة اقتحامه الجنوني، لتلقفها قهقهة مدوية خرجت من بين أسنانه البيضاء البادية، وسط وجه خمري منحوت، وعينين شديديتي السواد، لولا لمعة مضيئة بها لظننتها عيني ميت بُعث للتوّ، ولم تكد روجه تستقر بجسده.

- ممكن أسألك سؤال؟

- ما هو ده ف حد ذاته سؤال!

تجاهل الفتى مزاحي وهو يتابع وكأنه لم يكن ينتظر جوابًا منذ البدء:

- هو احنا مجرد كيميا؟.. يعني احنا فعلاً بنحب بهرمون، وبنكره بهرمون، وبننشوه بالتربية، وبنخون بالجينات؟! يعني أفعالي وقراراتي أنا اللي باخدها؟ ولا أنا مجرد فاترينة لحاجات تانية محتلاني زي التربية والوراثة وكيميا الجسم؟! كان يتحدث وهو يخرج علبة سجائر (دافيدوف)، يلقي إليّ بواحدة ويشعل أخرى.. لم يسألني.. ولم يستأذن.. فقط ألقى إليّ بالسيجارة إلقاء صداقة.. وأشعل سيجارته، ثم مدّ لي بالقِدَّاحة المشتعلة، لأقابلها بنفثة زفير صارمة أطفأت اللهب، غير أنني احتفظت بالسيجارة منطفئة في فمي! إنها المرة الأولى التي تشتعل فيها سيجارة بعيادتي، لذا لن أنسى هذا الفتى المريب الذي أخبرني أن اسمه (حسن)..

قام ليتابع تأجيج دهشتي وهو يقطع ورقة من دفتر الروشتات وبتنيها ويكورها ليصنع منها مطفاة صغيرة، وضعها برفق على فخذه الممدود من الأريكة نحو الكرسي، وأنا أراقبه بشغف.

فقد كانت جلسة كتلك كفيلة بتبديد إرهابي، ونسف تكدسات الروتين اليومي السخيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت أسئلة حسن غير المعتادة، قدرة على محو تبعات كافة ثمرات اليوم من عقلي المزدهم بالحكايا

«يقولوا الدكاترة النفسيين بيتجننوا من كتر التعامل مع المرض النفسي».

لم ينتظر (حسن) إجابتي عن سؤاله السابق حتى شرع يصب سؤالاً جديداً.. لأجيبه بتلقائية:

- تقدر تقول بعضهم عنده مناعة ضد عدوى الجنون.. يمكن لأنهم دخلوا المجال وهم مخبولون فعلياً!!

بدأت حينها أشعر بالآفة تجاه قهقهته المدوية.

- طيب بما إنك مخبول سابق.. ما تسبيك من قعدتك ورا المكتب وتعالى اقعد مطرحي، وأنا حقعد ورا المكتب! واهو تبقى اثبتلي إنك مختلف عن التلات دكاترة اللي رحتلهم قبلك.

اتسعت ابتسامته وهو يجدني أسارع بترك مقعدي وأمد يدي لألتقط السيارة المشتعلة من فمه وأزيحه عن الأريكة نحو المكتب ماداً قدمي بذات الجلسة التي كان يتصنعها أمامي.

- أنصف سيجارة اتعملت، مستحيل حد يقدر يغشها، (دافيدوف) الحريق الذي لا يمكن مقاومته..

قلتها وأنا أنفث دخان السيارة للأعلى في عبث أصابتني عدواه.

كعادتي ربما أشرب السجائر ولكني لم أكن أبداً مدخناً!

العجيب أن حماسة حسن وتسارع كلماته بدأ يخفت قليلاً أمام إدراكه لعدم توقع ردات فعلي.

فأصبحت صداميته الشهية أقل حدة.

وقد جلس ببطء على مقعدي وراء المكتب يتأملني وهو يشعل سيجارة أخرى، وأنا أتابع غير ملتفت إليه يمتزج تدفق النيكوتين الشهوي بكلماتي: - بقى يا سيدي الوراثة والتربية والكيميا كلها مؤثرات لكنها مش متحكّمت، يعني فعلاً بتأثر لكن مش بتهمين على القرار الإنساني الحر.

بتطالب وبتنادي وبتدفع.. لكن عمرها ما (بتفعل)!!

كيفضل فيه كيان حقيقي حر ورا كل الأسلاك دي بيتحكم في السلوك اسمه (الذات)، أو (السيلف / الإيجو) زي ما بنسميها

تسميها الروح، تسميها الأنا، ولكن عمرك ما تقدر تنكر وجودها.

لأن شعورك بوجودها بديهي مش محتاج إثبات!

- بالظبط يا دكترة.. أنا بقى حاسس إنني معنديش (سيلف) واحدة!! لا أنا عندي أكثر من ذات!

قالها وسكت لوهلة بيتلع فيها تلعثماته وهو يكمل:

- دي المصيبة.. أنا حاسس إن جوايا زحمة ذوات!

وكان الأرواح اتلخبطت وصبت جوه جسمي ثلاث أو أربع أرواح كل واحد منهم له دماغه الخاصة.

وفجأة بقيت أنا ساحة حرب دايرة بين الأرواح المحشورة جوايا!!!

كان تعبير (حسن) غريباً بعض الشيء، (أكثر من ذات).

ولكنه لا يوافق ضلالات تشخيص الفصامين مثلاً لافتقادهم القدرة على سبر الذات وفهمها.

أما الجالس أمامي فيما يبدو فقد تمثلت معاناته في كونه فهم أبعاد ذاته بشكل فائق حتى صار غير قادر على فهمها!

فكثير من العلم قد يمنحك حيرة أعظم أحياناً من كثير جهل!

وكثير من الغوص داخل النفس دون خريطة وُبوصلة توجيه قد يعني توهناً أكبر!

اعتدلت بجلستي وأنا أمد يدي لسطح المكتب وألتقط دفتر ملاحظاتي وأعصر انتباهي ناحيته لأجبره أن يروي أكثر.

وبدأ حسن يفتح مطويات دواخله وأنا ألقى عليه بعض الأسئلة الروتينية التي يطورها الطبيب مع الخبرة الإكلينيكية ليحصل بها على مقدمات تفتح له سبل الإبحار داخل نفس جاءته تستجدي المساعدة، نرسم بها خريطة عمومية لتضاريس الشخصية وقاعدة ننطلق منها معاً للتخليق في أجواء نفس بعثرتها المعاناة!

ولكنه كان يتنقل بين الصمت والمراوغة وكأنه يأبى أن تتدخل النمطية ويتطفل الروتين الاعتيادي للممارسة الطبية على لقائنا!

لأجده بعد كثير مراوغات يقول في جدية:  
- سيبك بقى من مقدمات تعريف نفسي وشغلي، وخلينا في مشكلتي مباشرة.

أنا مبقتش عارفني!  
حاسس إنني مش لايق عليا!  
كل الناس بتدور علي شريك حياة وتوعم روح تتعشقي روحه مع روحهم.  
أنا بقى بحاول بس أوصل لصيغة مع نفسي عشان أبطل أحس بالغبية تحت جلدي!

كلمات كان يختارها هذا الفتى تعتصرني صفعاتها اللفظية.  
لم أكن حينها أستمع من وراء العازل الزجاجي النفسي الذي يضع الطبيب به انفعالاته أثناء الجلسة.

إنما قد انفعلت وانجرفت بشدة لأتبعه في نهم، وهو يعود بظهره للوراء قليلاً ويشرد في اللاشيء ثم يتابع:  
- إنت عارف اللي مزروع له كُلية غريبة عن جسمه، جسمه بيحاول يحاربها كجسم غريب متطفل عليه.

أنا بقى واضح إنني بقيت بعامل نفسي كجسم غريب، بقت دماغي مقسومة نصين، كل نص منهم بيعامل الثاني كعدو ودخيل!!  
وأنا جايلك هنا عشان تسكت الدوشة بتاعة صراعي جوايا.  
قالها حسن برجاء أقرب للتوسل.

ولكن ملامح وجهه لم تلبث أن تغيرت فجأة نحو ابتسامة عريضة وهو يضغط زر الاستدعاء على المكتب، لتهرع (سماح) للغرفة، وتتفاجأ بوضعية غريبة يجلس فيها طبيبها على الأريكة وعميل لم يدفع (الفيزيتا) بعد يجلس بأرحية على مكتب الطبيب، ثم يفاجئها صوت حسن العابث:  
- قهوة مطبوطة..

ثم يلتفت إلى متسائلاً بعفوية صادقة:  
- تحب تشرب حاجة يا دكترة.. لسه قعدتنا مطولة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن سكرتيرتي التي اعتادت التعامل مع المضطربين وغريبي الأطوار لتندهش بالمشهد كثيرًا فقط اعتادت تلك الفوضى وغير المتوقع دومًا من الزوار، وربما أحيانًا من طبيبهم!

كان لسان حالها دومًا يهمس للزوار: ( لو كانت مشكلتك نمطية.. فليس هذا بالمكان الذي يجب أن تقصده!).  
يسائلني حسن بعد خروجها:

- إيه شكل الجلسة الفعال.. اللي الدكتور فيها هو اللي بيتكلم ويدي نصايح ولا المريض فيها هو اللي بيحكى!!

- الأكثر فاعلية.. اللي يبقى حكي المريض موجه من خلال الطبيب.. وكأنه  
واخده ف رحلة غوص جوه نفسه وتجاربه.. وكل ما يلاقوا حاجة مهمة  
ياخدوها عينة تحليل.

لا أنكر أن حسن قد صدّر إليّ شعورًا ما فعلاً بأنّي أجالس أكثر من شخص..  
فبين جملة تشعر فيها بأنك أمام كائن نرجسي مسيطر وأخرى تشعر فيها  
أنك أمام طفل مرتعش تائه!

- تقدر تقول إن مشكلتي في (فوبيا القرارات).. مفيش أي موقف في الدنيا  
بيمر عليا بيحمل احتمالين إلا ويتحول لكابوس.

لأنه جوايا ما يكفي لإقناعي بالاختيارين!!  
جوايا خوف من تضييع أي احتمال لدرجة تمنعني عن الاختيار.  
وبتردد بصيغ الاتنين!!

أنا مش مشكلتي إني مش عارف ( أنا عايز إيه!!).  
لأن ببساطة مشكلتي إن اللي أنا عايزه نفسه بيتغير بشكل سريع.. وتصوري  
عن نفسي تاني يوم بلاقيه مختلف تمامًا.. وكأن حد بيحقني بيه وأنا نايم.  
وكان دماغى بقى برنامج مشاع من غير باسوورد كل يوم حد خفي بيتلاعب  
بالسوفت وير بتاعه.

إنت متخيل حجم البؤس اللي فيه بني آدم مش قادر يتوقع نفسه بكرة!  
سكت لبرهة ليتأمل تأملي له، يحاول أن يستنتج ما يجول بذهني عنه ثم  
أطلق همهمة خافتة تبعها:

- اسمي حسن.. مشيها حسن.

- منورني يا ابو على..

تلك جملة (أكلاشيه ترحيبي) كان من المفترض أن أقولها، لولا أنه لم  
يمنحني فرصة، حيث وجدته يللمم ولاعته والمطفأة الورقية، ويفتح باب  
غرفة الكشف فجأة.

ويغادر!!

لم أتحرك من موقعي على الأريكة، فقط اكتفيت بنفث دخان السجارة  
متناولاً فنجان القهوة من يد سماح المتحيرة، والتي أجمها الموقف العابر  
قبل أن تقول وهي تهز رأسها باندهاش:

- طب إيه.. ده كشف ولا جلسة؟، هو رمالي 200 جنيه ومشي!

لتجدني ألملم قدمي وأقوم عائداً لمكتبي وأنا أتمتم ساخرًا:

- ماتقلقيش.. حيرجع تاني.

ده ياستي ولا هو كشف ولا جلسة..

ده اقتحام..!!



في الجنة سنفتقد كل الأشخاص الجذابين!!  
(نيتشه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



توقعت أن يرجع حسن للعيادة يومًا آخر.. لكنه لم يفعل!  
ولكنه أيضًا لم يخيب ظني بمقابلة أخرى.  
فبعد يومين من جلستنا العابرة تلك وحول العاشرة مساءً بإحدى أمسيات  
أكتوبر شديدة البرودة، كنت قد أنهيت عملي لتوي متوجهًا نحو سيارتي  
القابعة بالطريق المظلم أسفل العيادة الكائنة في (البيطاش) أحد أحياء  
الإسكندرية الطرفية المفارقة للأرستقراطية الزائفة القديمة نحو شعبية  
الاحتشاد الناجم عن انخفاض كلفة العقارات فيها نسبيًا مقارنة بأحياء (وسط  
البلد).

لأجد سيارتي على بعد بضعة أمتار من مدخل البناية وقد اتكأ ظل رجل  
أميزه علي كبوتها يتنسم في مكر وهو يلقي إلى بسيجارة أخرى.  
وقفت قليلاً أشاهد حسن ممسكًا بسيجارته بيده اليمنى التي استقرت فوق  
ركبته المثنية على قدم منصوبة تستند باستهتار إلى (إكصدام) السيارة  
الأمامي ورجله الأخرى تسبح متأرجحة بحرية في المسافة بين السيارة  
والأرض المبتلة بقطرات شتاء وليد عبر بلدتنا فيما يبدو أثناء انشغالي.  
حاجباه العريضان وعيونه غائرة العمق شديدة السواد بارقة اللمعة وملامحه  
المنحوتة بعناية هرمونية بوجنتين بارزتين ووجه مستطيل وذقن واضح وكأنه  
غرر في وجهه بعد انتهاء صبه، ربما يبدو الفتى كشاب قد ارتحل لتوه من  
العشرينات نحو التقاط طرف الثلاثين وهو توقعي الذي سيصدق تمامًا!  
- إيه يا دكترة.. أنا مستني من سبعة ونص.. غالبًا الكبوت حيكون طبع بشكل  
بصمة (مؤخرتي)!!

- اركب!  
- ما تجيب أسوق أنا طيب.. حوديك حته حلوة.  
في ظني أن حسن لم يكن يتوقع وهو يبعث لي بطلبه المازح أني سألقي  
إليه المفاتيح وأتوجه للمقعد الثاني.  
ربما هي المرة الأولى التي أجلس فيها بهذا المقعد بسيارتي.. فكيف  
والسائق فتى مضطرب مجهول قابلته بعيادتي النفسية منذ يومين لا أكثر.  
ربما كنت أحتاج دفقة من الإدرينالين أكسر بها شعورًا طويل الأمد بركود  
انفعالاتي.  
فمن الآثار الجانبية لكونك طبيعيًا نفسيًا.. أنه لم يعد شيء يكفي ليثير  
دهشتك، ولا شيء قد يذيب صقيع انفعالاتك الحيادية المجمدة

ولكي أبقى رجلاً كحسن يعود إليّ.. لا بد أن يبقى هو من يندهش أكثر..  
فأمثال حسن لا بأسرهم سوى عدم التوقع.

لذا قد بدت ارتعاشة خافتة على شفثيه المبتسمتين لما باغته بالقبول، ذابت سريعاً وهو يلتقط المفاتيح ويقفز إلى مقعد السائق ويدير السيارة.  
ليسير بنا في طريق مهجور بالكلية خلف ميناء الدخيلة الذي يحتل مساحة شاسعة من الحي، ثم يقودنا إلى رقعة متطرفة منه مظلمة خالية من المارة والسيارات وأعمدة الإنارة بالكلية.. ليقف حسن السيارة ويشير إلى اتباعه.

متكئاً على سور الميناء وبين شجيرات تحجب الطريق قعد حسن على فرش كارتوني معدّ مسبقاً للجلوس ثم قال وهو يفسح لي مساحة لمشاركته جلسته الغربية:

- دي قعدتي تقريباً كل ليلة بقالي كام شهر.. مفيش حاجة بتسكت الأصوات الدائرة في دماغي إلا هنا.

يسألني حسن وهو يتابع تمهيداته الطويلة التي لم تفض بنا لشيء بعد وقد بدأت أملها فضولاً لمعرفة ما تخفي وراءها:

- لو سألتك إيه أكثر أسباب المرض النفسي تقوللي إيه..؟

- حعتبرك سألتني وحقولك صورة الإنسان عن نفسه..

أي خلل في الصورة الذاتية معناه قبلة موقوتة ممكن تنفجر في أي لحظة باكتئاب أو قلق أو وساوس!

صورتك عن نفسك هي أصل كل الشرور!!

وعلى وليمة مكونة من سبعة سجائر (دافيدوف) كانت جلستنا الأشهى والأصدق في بقعة مهجورة بظلمة حالكة لا أتبين فيها ملامحه، لا تكاد تسمع بها سوى صافرات السفن وزامرات سيارات النقل الثقيل تعبر عن ذكورتها بالطريق المجاور.

محاولاً أن أكسر مقدماته قلت بجدية:

- حسن.. أنا لسه لحد دلوقتي معرفش مشكلتك.. انت لو كنت مقضيها كده مجرد أسئلة وجودية مع التلات دكاترة اللي قبلي طبعي إنك متلاقيش تحسن أو تغيير!

قلتها وأنا أنفث دخان سيجارة محاولاً تدفئة أنفاسي وأنا أنظر لوجه السماء الليلي الأسود مع بثوره النجمية اللامعة.. ليأتيني صوته الهادئ وكأنه لم يعبأ بمحاولتي الدخول لأصل إشكاليته الشخصية:

- تفتكر إيه مفتاح المرأة؟.. يعني إيه أكثر حاجة ممكن تشدها فيك وتخليها تبقى بين إيدك زي المنومة؟! وتخليك تعبت بروحها زي ما تحب؟!!

كان سؤاله حقيقياً لا اختبارياً.. أطلقه وهو يعتدل بجلسته متوجهاً بكليته نحوي كحائر قد وصل لتوه إلى مغارة اعتزال راهب حكيم!

أطلقت همهمة خافتة وأنا ألتهم قضة شهيق واسعة من السجارة وأجيبه بعفوية سجين أسبق:

- العمق!

إنك توصل للمناطق اللي ماوصلهاش حد قبلك! تغوص جواها زي صياد لؤلؤ أو حفار في منجم جاي يجمع أحجارها الكريمة!.  
الحرارة عند المرأة تتوقف على عمق الغوص..  
وجدته يطلق ضحكة أخرى وهو يقاطعني بتلقائية:

- ده حتى يا أخي ربنا خالقنا جسمانيًا عشان نغوص فيهم بأشد عمق ممكن!  
كان تعليق حسن اللئيم والأكثر بداهة قد منحني ضحكة عالية قلما كانت تخرج بجلسة على حين غرة من ثباتي الانفعالي المفتعل.  
فأمتع ضحكاتنا تلك التي تخرج اندهاشًا!!

فلم يكن الفتى مخطئًا في إشارته الإباحية العائشة تلك.. فالمرأة مخلوق يحوي فراغات داخلية وتعريجات وسرايب... روحياً وجسدياً.  
تبدو المرأة لي كأرض فانتازيا مهجورة يتمثل مفتاح كنوزها في قدرة الرجل الأكثر صبرًا على الإبحار في دهاليزها الأبعد والأكثر التواءً ووعورة!  
ووحده ذاك الذي يكتب اسمه كمستكشف لمناطقها النفسية الأعمق والأخفى.. هو الرجل الذي لا يمكنها نسيانه مهما حاولت.

إن أيقونة الذكورة لدى كل فتاة.. هو ذاك الذي حطم الأرقام القياسية في مس قاع أعماق خيبتها وآمالها معًا!

وكان حسن موهوبًا في مثل هذا الأمر، يحمل قدرة عجيبة على فك شفرات ممرات أرواحهن، ليترك في أعماقهن بيوض خيبات أكثر!!  
كان هذا ما سيتضح في حكيه يومها الذي امتزجت به اللامبالاة بالتوجع الخفي. يروي لي كمحكوم عليه بالإعدام لا جدوى لتوبته لا تدري هل يروي على سبيل الاعتراف النادم أم التبجح!!

وهو يتكئ بظهره على السور المتهالك ويقول بنبرة مرارة تهكمية:

- أنا بقى تقدر تقول إنني أكثر حد مؤذي ممكن تقابله.. ذئب بشري محترف..  
ولكن لأرواح البنات مش لأجسادهن!!

لم يمكنني أن أخفي تلك القشعريرة الباردة التي سرت في رقبتى وهو يقص شريط افتتاحية حكاية خطاياها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتبدل وجه حسن سريعًا كمشاعره، فيبدو مستعليًا استعراضيًا واثقًا حينًا،  
ويبدو خائفًا راجيًا حين يحكي عن نفسه.. وهكذا كان حين قال:

- انت أكيد مش حتحكم عليا.. لو قلتك إنني مقدرش أعد عدد البنات اللي عرفتهم.. أو لمستهم.. أو ربطتني بيهم قصص حب!

ربما لم أتخذ كامل كلام حسن على محمل الحقيقة المتجردة من المبالغة في البداية، فالعمل بحقل الطب النفسي يجعلك منغمسًا في هلوسات

زوارك ووساوسهم ومحاطًا بالهستيريا والدراما الانفعالية ومخالطًا أناسًا يفقدون السيطرة وتفسد مكابحهم، مما يجعلك كثير الحذر في تصديق كل شيء بالبدايات.. لذا بادرت:

- أحيانًا ممكن الشخص يتحول لآلة لحصد المشاعر، يعتمد تعليق قلوب الناس بيه وتوجيه عواطفهم ناحيته مش عشان هو خبيث ودنيء، ولكن يمكن عشان يخفف ألم رعبه من الوحدة والهجر!

يمكن تكون بتجمع البنات ومشاعرهم حواليك عشان خوفك من أنك تكون وحيد!! أو يفارقك حبيب!! يمكن معندكش إمكانية للتعامل مع خوف زي ده. وأخذت أشرح لحسن كيف أن فوبيا الفقد قد تحيل الرجل إلى زير نساء، وقد تحيل المرأة إلى غانية تغوي الرجال لا عن انحلال أخلاقي إنما عن انعدام اتزان نفساني.. كمحاولة دفاعية لا واعية من نفوسنا لنشعر أننا لازلنا على قيد الحب مرغوبين.

قد تكون مغامراتنا ونزواتنا العاطفية أحيانًا ليست سوى سبيل لتكوين ضمانات ضد الفراق، فلا نذوب احتراقًا إن فاتنا حبيب.. لأننا نملأ أدرجانا بالبدائل التسكينية تتمثل في تشكيلة ندخرها من الأحباء المحتملين!!

وبعض الدونجوانية ليست سوى علامة على خوف الوحدة.. وبعض التعددية قد تنبع من كوننا نشعر بأننا لا نستحق الحب.. فنسعى لتجميع الأدلة على نقيض هذا الشعور البغيض بانعدام القيمة! كان صوت أنفاس حسن يعلو أحيانًا ليوحى إلى باني أطرق على مناطقه الملتهية وأتلاعب بأوتاره الحرجة.

- طب احكي لي عنها!  
هكذا سألته فجأة، ليجيبني ببداهة وهو يتأمل السماء الباردة في تأملها لأهوال الأرض:

- قصدك عنهم بقى.. بقولك دول كثير.  
ابتسمت وأنا أصبغ حروفي بنكهة مأكرة وأنا أكرر:  
- لا.. عنها!

أصلك انت ولو كنت كازانوف، برده حتفضل فيه واحدة بس لمست قاع روحك انت..

أيقوتك انت اللي بتقيس عليها باقي البنات.  
هنا كان تعالي صوت أنفاس حسن يتعاطم.. حتى كان شهيقه يبدو كشهقات! لا يمكن للرجل مهما ذاق من صنوف الأنوثة أن يتحرر من هذه الحقيقة: وهي كون إحداهن تقبع في تابوت حميم من مقابر ذاكرته، تدغدغه صورتها، وتتطفل دومًا على أحلامه..

تسير في طرقات ذهنه كعارضة أزياء متبجحة، تقاس عليها النساء، وهي لا تقاس على أحد..!!  
كل رجل منا.. يملك واحدة.

ربما إن كان محظوظًا فتمكث جواره..  
وربما إن كان ملعونًا بها؛ فيمكث هو إلى جوار أخريات.. وتبقى لتجلده  
أسواط الحنين إليها عند كل منعطف عشق!  
وجميعنا يشترك في حقيقة أكثر وجعًا:  
أن تلك الأيقونة الأنثوية هي أكثر من أذانا.. وأوجعنا.. وأنهكنا.. ثم أقصينا  
وأكثر من وقع عليها منا سوء الاستغلال.  
فعند الرجل دومًا؛ أكثر من أحب.. هي أكثر من مارس عليها حماقاته!  
وحسن كان يملك واحدة تعتقت جراحها هي منه في مخازن ذاكرته هو..  
واستدعاها سؤالي الماكر!!  
كررت السؤال لأخرجه عن شرود نبت سريعًا فوق وجهه:  
- احكي لي عنها!

ربما كان استدعاء صورة الأيقونة الأنثوية الخاصة بحسن سببًا لإغراقه في  
صمت طويل وتأمل في اللاشيء.  
الشرود.. أحد أهم أعراض متلازمة الحب.  
فأول ما يلقي إلينا الحب في إصابتنا الأولى بالطفولة من أعراضه.. الشرود  
/السرطان!!  
هروب من الواقع المحيط.. نحو إمكانات لا نهائية في عالم ثنائي الأبعاد: أنت  
والحبيب!  
ثم تتضاعف الإصابة مع نمونا؛ فتنشأ أعراض عصابية أخرى ممثلة في  
الهمهمة والدندنة والتنهيد!!  
وربما خيالات وأطياف.

وربما أعراض إدمانية عبر الشوق وطلب المزيد من الوصال!!  
الحب.. مرضنا النفسي الأول.. المشترك.. والمشتهى!  
ويبدو أن الطبيب سيبقى إنسانًا منخرطًا في الحكاية من زاوية ما. فقد  
حملتني تأكيدات عن توحيد الرجل الداخلي في امرأة ما إلى استدعاء صورة  
ذهنية شاحبة عن أيقونتي أنا، دفعتني لأشاركه بعض الشرود الذي بدده  
حسن فجأة بتساؤل لاهث:

- بس هي تلاقىها بتكرهني دلوقتي؟  
لأومئ برأسي موافقًا في لامبالاة متعمدة تتبعها همهمة وأنا أجيبه:  
- إمامم.. ويمكن تكون بتدعي عليك كمان، وشايفاك أسوأ شيء حصل لها  
في حياتها!!

هكذا أجبته دون التفات، فينغزني الفتى بكتفه وهو يبتسم:  
- ياعم إنت كده حتعقدني أكثر.. يعني بدل ما تدينني أمل وتقوللي القلب  
اللي يحب ما يكرهش وكلام الأفلام ده!  
تأملت عفوية تحولاته وتعبيراته وأنا أتابع إحباطه المقصود لاستفزاز الحكيم  
بقولي:

- المرأة مكونة من انفعال وحاجات تانية!!.. ده تعريف المرأة ببساطة:  
انفعال زائد كدا، المهم إن تطرف الانفعال ده الأرضية المشتركة بينهم.  
البنيت لو حبتك أوي يعني.. بينقلب انفعالها ده ضدك في حالة الفراق.  
المرأة معندهاش في الأغلب منطقة رمادية محايدة.  
ماتعرفش الانفعالات المايعة.. أو التفاوض العاطفي؛ إما حب مشتعل.. أو  
فراق كارثي.. وأحيانًا كراهية مؤذية!!  
كانت عينا حسن البارقتان بالظلام توافقاني.  
ولكنه كان يعلم مثلي تمامًا أن السماء قد منحت المرأة الحماقة الأعظم  
والتي استغلها الرجال منذ بدء الخليقة.. حماقة الغفران الفوري!  
فكل فتاة في العشق هي نصف أم؛ تغفر لحبيبها المؤذي بأمومتها التي  
وازنت بها السماء تطرفها الانفعالي.  
وحدها بذور الأمومة داخل المرأة قد وقت الرجال خطر الانقراض.. الذي  
كان محتمًا بفعل القصاص الأثوي من الحماقات الذكورية المتتالية!  
أطلق حسن تنهيدة تشي باحترق داخلي.. وهو يقول:  
- بس تصدق عندك حق.. أنا أول ما ببقى نضيف ببقى نفسي أرجع لسارة..  
وأستغفرها.. وعملت كده أكثر من مرة فعلاً..  
لكن شوية وبيرجع القدر اللي جوايا يلعب بديله، وأدور على التجديد وأتهرب  
من الالتزام.. وأدور على أي مبرر لقفل الحدودة!!  
وهي الغيبة كانت كل مرة بتصدقني لما بارجع.. وتشوف إن دي عودة  
مختلفة!!  
عاد لشروده الصامت لحظات وكأنه يسرع فيض المشاهد السابحة بمخيلته  
الذهنية.. ثم يتابع في تساؤل جاد:  
- بس تفتكر يعني الحل في إن الواحد يحرق حرите وشبابه في الالتزام تجاه  
امرأة واحدة؟!  
- يحرق!!  
خرجت مني الكلمة بعفوية صيحة وهو يجيني:  
- أه يحرق.. أصل احنا كرجالة أصلاً كائنات غير مخلوقة للتوحد، تحس كده  
إننا مش متبرمجين ع الالتزام والعلاقات طويلة المدى.. عشان كده قرار  
التوحد والالتزام الكامل ده حتى لو كان واعى ومدروس حيبقى تضحية  
وبؤس إرادي!  
لم يكن حسن رغم قسوة عباراته بعيدًا تمامًا عن الحقيقة.  
فبغض الطرف عن حرارة الحب.. يحتاج قرار الالتزام الجاد لدى الرجل إلى  
جهد النفسى الأقصى بعمره!  
- بس مظننش إن دي مشكلتك اللي انت جاي تكلمني عنها أكيد؟!  
ابتلع حسن ريقه بصعوبة وهو يوارى تلعثمه الظاهر ويلضم حروفه بتعنت  
واضح وهو يقول:

- امممم.. دي البداية.

أنا حاسس إنني سادي.. مؤذي بيستمتع بالإيذاء!  
ثم صمت لوهلة وهو يتابع قد لمعت عيناه فجأة ببريق ماكر:

- الغريب بقى إنهم مبسوطين ومحدثش بيشتكي.

وكل ما بتزيد طاقة الأذى.. بيزيد قربهم منك!!

ثم التفت ناحيتي مستطردًا:

- بجد يا دكترة فهمني.. ليه البنت - رغم إنها دايمًا بتطالب بالحب والحنية -

بتبقى حريصة أكثر على الراجل المسيطر اللي كارفها وتقلان عليها.. أو

يمكن الخشن اللي بيأذيها!!

إيه علاقة الحب بالأذى عند البنات؟!!!

تقدر تقول لي مثلاً ليه الست بتعبر عن الاستمتاع في الممارسة الحميمة

بالآهات والصريخ؟!!

لا أخفي أن الفتى قد أصابني سؤاله بالحيرة وأفقدني اتزاني الدماغي

للحظات.. ثم وجدنتي أهمهم قليلاً وأنا أجيبه متحيراً:

- مش موضوع أنثى ولا موضوع تلذذ بالتأذي..

إنما ببساطة تقدر تقول إن الإنسان عموماً إذا فاض جواه شعور معين

لدرجة تفوق الحد مش بيلاقي تعبير عنه غير باستعارة تعبيرات الشعور

المضاد ليه...

يعني بيستعين بالشعور العكسي عشان يعبر عن فرط الشعور الأصلي!

يعني مثلاً لو فرح فرحة غامرة أصعب من أنه يتحملها بيعبر عنها بالدموع

اللي هي في الأصل تعبير عن الحزن..

وكانه مش بيلاقي تعبير كافي فيستعير في حيرته الشعورية دي ترجمة

عكسية!!

وعشان كده فرط اللذة.. يدملك ترجمة بالتأوه..! عند الست والراجل..

انت مشوفتناش كرجالة واحنا بنتفرج ع الماتش والجون لما يخش.. برده

بنصرخ!!

ولما بتدوق حاجة حلوة من فرط لذتها بتطلع كلمة الله بتاعتك ممزوجة

بالآه!! الالالالالاه..

وجدت لمعة أسنان حسن تعلقو في الظلام ممتزجة بقهقهة مدوية.. قطعت

كلماته وهو يقول في خبث:

- عشان كده اخترتك انت..!

إنت مش بتاع طب وبس، إنت صايع كلام برده زي ما سمعت عنك..

ومحدثش جياورني كويس زيك..

قالها ضاحكاً ثم أخذ يشعل سيجارة أخرى يرشف منها نفساً طويلاً ثم يتابع:

- بس برده أنا عندي قناعة جوانية كده إن الأنثى بتميل للقوة وان الأذى

عندها بيبقى علامة قوة.. فبيديها لذة أعنف..

وان كل ست ف الدنيا جواها (مازوخية) مستترة بتتلذذ بالألم والانقياد والاستسلام.. ويمكن كمان التعذيب أحيانًا.. والمازوخية اللي جوه الست مش بتخرج إلا أمام سيادة حقيقية.. ومش بيستفزها لإظهار ضعفها وانكسارها وخضوعها غير أعظم مدى من القوة والسيادة!  
بدأ يصيني حدس بإمكانية كوني أمام حالة (سادية) حقيقية وليس مجرد (دون جوان) مبالغ مضطرب. وقشعريرة نفور خافتة تسري في رقبتني أمام حديثه المشحون بالنرجسية.. ونكهة الذكورة الهمجية التي ملأت المكان حولنا..

هل كنت أرى حسن على حق وأنا جميعًا نواري داخلنا هذا (السيد السادي). ويتفاوت الرجال فيما بينهم في هذه النزعة السيادية التفاضلية.. وتنجذب المرأة حقًا لذوي الأنماط الذكورية الأكثر وحشية..؟!  
كان خاطر بهذا كفيلاً بمنحي رعدة أعظم من مجرد قشعريرة. فتخيل كواليس العلاقات الإنسانية بالصورة البدائية كان مرعبًا بحق!  
يقاطع صمتي همهمة تالية لحسن يعاود فيها طرحه الخبيث في لؤم ظافر:  
- طب تقدر تقولي يا حكيم.. ليه أحلام الأنوثة البريئة دايماً فيها (الفارس اللي بيخطفها على حصان ابيض!!).  
ليه دايماً (بيخطفها)!

ليه مش يطلبها، أو بيركن الحصان في الباركينج وينزل يسألها إنها تتجوزه!  
عمرك سألت نفسك ليه أحلامهم الفطرية دايماً فيها (الخطف)!  
والخطف يعني اقتحام وتغييب لإرادتها قدام إرادته العظمى!  
(فارس) و(خطف) يا دكترة.. وتقوللي مش بيستمعوا بالأذى؟!  
سحب حسن نفسًا طويلًا من سيجارته وأطلقه في الهواء ببطء ثم أكمل مبتسمًا وهو يشعر بطعم سطوته اللفظية:  
- والأمير في ديزني اللي دايماً بينقذ الأميرة (المحبوسة).. أو (المربوطة).. أو (النائمة الملعونة) من الساحرة..

المهم إن لحظة ظهور الأمير في الحدوتة بتبقى دايماً مربوطة بغياب إرادتها.. يعني: اقتحام كامل.. واختيار وإرادة ذكورية بحتة اللي بتظهر في المشهد..

قال جملته الأخيرة وهو يميل بجذعه ناحيتي ليقترب صوته أكثر في تحدُّ ذكوري سافر بين ذكرين في غابة الرؤى حول مناطق السيادة اللفظية:  
- مش فرويد برده بيقول إن دي رموز لرغبات مكبوتة ظهرت في حواديتهم! الغريب أنني لم أملك حينها سوى أن أمنحه ضحكة مقابلة وأرتدي بعض الخبث الدفين وأنا أميل ناحيته إمعانًا في التحدي قائلًا:  
- متنساش ان كتاب القصص دي أصلًا معظمهم رجالة!!.. فيمكن تكون دي رغباتنا احنا!

مش يمكن نكون احنا اللي بنخاف من تمرد الأنثى.. فينصدر إليها من أيام طفولتها فكرة الخضوع وغياب إرادتها قدام الإرادة الذكورية..

بنشحن الكون حوالها بأوهامنا احنا ومخاوفنا وأحلامنا حول السيادة.. عشان نطلع كائن مطواع وسهل نقوده ونتحكم فيه!

أتاني صوته الواثق رخيماً هادئاً وهو يعتدل في جلسته ثانية:  
- ما تلويش الحقايق يا دكترة.. إنت عارف إننا بيدور ف دمنا هرمون السيادة.. والسيطرة..

إنت نفسك دلوقتي حاسس بدفقة التوستوستيرون جواك.. مسخناك.. وماليك بالتنافسية وشهوة الصراع قدام ذكر ألفا تاني جاي يقتحم مناطق سيطرتك على دماغك لما طرح فكرة مختلفة عن اللي انت مؤمن بيه.. عاد إلى نفث دخان سيجارته وهو يقول في خبثه:

- تقدر تقول لي ليه الذكور في كل الأنواع الحيوانية بتمارس الحب والتكاثر.. بوسيلة واحدة وهي طعن المرأة بأحد أعضائها..!

بلاش مثالية.. هو الجنس إيه غير عملية طعن متتالي بعد تأهيل نفسي..! عاد لصمته يتأملني وكأنه يحاول استشفاف أثر كلامه الثوري على نفسي.. ثم استمر:

- كلنا جونا السادي القاسي ده.. وكل الستات جواها الضحية الخاضعة دي. ولو حاولنا نلبس وش تاني غير اللي احنا مخلوقين بيه حنضطرب ونبقى بأئسين..

وبعدين ماهو كله بالرضا!  
قالها وهو يللمم علبة سجائره وولاعته في رحيله المفاجئ كاقحامه، ويستنشق الهواء المحمل بالذكورة الحرجة بيننا، ويقول في خروجه الغرائبي كعادته:

- حسيبك تفكر ف الموضوع.. لحد الجلسة الجاية..  
ثم بلغ تأملي لمشيته الواثقة حد الاستهتار، ومكوثي دقائق عبر رحيله أفكر.. ترى أي هزة تلك التي منحني إياها حسن.. وهل كان الأمر يعدو مجرد مهووس يبرر لهوسه باحترافية بائع تسويقي حذق، أم أنه قد قام بتعرية قاسية لذلك البربري القابع داخلنا جميعاً كما يدعي ونجاهد في كبتة بأقنعة الرقي..

لم تكن صورة تلك الجلسة ليسهل إزاحتها عن شاشة عرض ذاكرتي طوال طريقي لمنزلي ليلتها وبعض الليالي التي تلتها.  
لم يكن ليزيحها سوى ظهور جديد للفتى..!



لا تسر ورائي.. فرما لا أقودك ولا أمامي.. فرما لا أتبعك.. فقط كن  
جوارى.. ولتصبح صديقي.  
(أبىر كامو)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ربما تجردك ممارسة الطب النفسي من حواس الدهشة.. فلم يعد شيء يثير انفعالك..

وتصير متابعة المعاناة الإنسانية والاستماع لخطايا البشر هو روتينك اليومي.. ولا يعود بؤس العابرين يحرك سواك كما كان تمامًا كاللمس البارد للحديد والصفوح تحت يد (سمكري) متمرس..

لذا كان حسن استثناء.. لأنه أعادني إلى حالة الانفعال بكيان إنساني آخر.. مرت الأيام وهو يتطفل على مخيلتي.. أتمنى أن يعجل بقاء جديد.. ولكنه لم يفعل..

فيتنابني اليأس من عودته.. وتبدأ ملامحه في الشحوب من ذاكرتي.. وتقل زيارته لذهني كما انعدمت عن عيني..

فهكذا الإنسان كائن مؤقت الذاكرة.. تسقط من ذاكرته أعماق العلاقات وأسمى المعاني... فقط بعض الوقت.. يكفي لمحو أعنف حكاياتنا القديمة! فالزمن هو خير معالج للنفوس..

وكان ظهور حسن الجديد مفاجئًا كالعادة.. ولكن ليس بحضوره الشخصي هذه المرة..

كانت جلسة أولى روتينية لفتاة حدثني قبل أسبوع تطلب موعدًا صباحيًا.. وفي روتينية سألتها السؤال المعتاد:

- قولي لي يا رقية.. إيه أكثر حاجة خلتك تفكري تزوري دكتور نفساني..؟! قلتها وأنا أفتح صفحة جديدة في كشكول ملاحظاتي باسمها.. وأنتظر أن تروي لي بتخبط البدايات؛ بعض الشكايا من نفسها والمحيطين.. ولكنها لم تفعل..

إنما استطاعت رقية أن تصمت قلبي وتخرجني عن حالة الاعتياد الروتيني ثانية حين أجابت بكلمة واحدة:  
- حسن!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رقية.. فتاة مريحة الملامح هادئة الحديث بطيئة الحركة.. تبدو في هدوئها الغريب كقس دخل لتوه ملكوت السماوات ولم يبارحها.. تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، مثلها كان ليبدو مستغربًا في زيارته لطبيب بحثًا عن سلام نفسي مفقود..!

قصيرة القامة نوعًا بيضاء تبدو ناعمة رخامية لامعة البشرة متأنية النظرات لا تتعمد ملاقة عيني أثناء الحديث وكأنها تخفي شيئًا ما كانت تتهرب بعينها

الواسعتين اللتين أبرزهما الكحل الأسود الداكن..  
ستخبرني رقية ذات يوم وهي تحادثني عن علاقتها المميزة بالكحل:  
- بقيت من غير الكحل بحسب إني شبه الزومبي! يمكن الكحل إحدى  
الحاجات اللي لسه بتحسبني إني حية!

هي لم تكن ترى نفسها بذات الجمال الذي ستدركه فور رؤيتها، فلم يكن  
أحد ليتمكن ألا يصفها بالحسنة بشفاها المكنطة في إغواء هلام طازج  
صبغته بالأحمر الوردية.

طرحتها السوداء الأنيقة ذات الخطوط الحمراء تتلاقى مع حمراوية (بلوزتها)  
و(أحمر) شفاها في تعمد انتقائها فائق الذوق، ويمائل سواد طرحتها ذات  
سواد تنورتها الطويلة ضيقة الخصر متدرجة الاتساع حتى قدمين علي قدر  
بالغ من البهاء يحملهما حذاء عالي الكعبين مفتوح المقدمة يظهر أظافر  
يخيل إليك أنها قد طلقتها بذات أحمر شفاها!

قد تعمدت في تأنيقها أن تميل ربطة طرحتها القصيرة ناحية اليسار قليلاً  
ليظهر مدخل رقبتها البيضاء وكأنه قد تبدي عفواً، تلمح تدرجات ألوان  
عروقها بين الأخضر والأزرق تحت جلد رقبتها التي كادت أن تكون من شدة  
بياضها شفاة! وكان عروقها تلك كأسهم إشارة ضوئية تلح عليك باتباع  
نزولها المستخفي وراء أعلى بلوزتها!

قد أصبح هذا الترك المتعمد لآخر الرقبة الأنثوية ومدخل الصدر ليبدو من  
الطرحه أمرًا شائعًا لدى النساء قد أعيد إحيائه بعد اندثار طويل نسبيًا نتاجًا  
لما يسمونه صحوة الحجاب التي عادت لغفوتها!  
كان يسمى لدى العرب قديمًا (الجيب)، أحد فخاخ المرأة المملومة منذ فجر  
التاريخ!

تحيط برقبتها سماعات أذنين ضخمة يمتد سلكها نحو حقيبتها التي يقبع بها  
هاتفها الذي لا تكف موسيقاه، الموسيقى التي ستخبرني رقية يومًا أنها  
تستخدمها هروبًا من (دوشة) العالم حولها!

تجلس جلسة محافظة على طرف الأريكة.. ربما لم أشاهد حركة بادية على  
أي من أعضائها أثناء حديثنا.. كراهب بوذي في تأملاته!!.. تناقض جلستها  
وطلتها شخصيتها التي ستتضح جريئة مغامرة!

رقية كانت أولى ضحايا حسن التي تزورني بطلبه هو!!  
هل كان ينقصني سوى أن يقتنع بي الفتى المخبول ليرسل إلى ضحاياه..  
لأعيد لملمة ما بعثر من دواخلهن!!

تلك كانت سابقة لن تتكرر..  
أن أقوم يومًا بعلاج الجاني.. والضحايا!  
بطلب من الجاني!

رقية كانت قد أنهت في عامها المنقضي ليسانس الآداب قسم المسرح،  
وهي تحمل الكثير من الطموح الفارع من الواقعية والعمارة من السعي لحلم

يحتلها للعمل في الإذاعة بصوتها الأنثوي المميز.  
- حسن بعثلي رسالة فيها اسمك وتليفونك وطلب مني أجيلك..  
الصراحة أنا مش عارفة أنا جاية ليه..؟!  
لأسألها باهتمام من لا يحتاج تدوين ملاحظات:  
- وإيه اللي خلاكي توافقي حسن إنك تقابليني؟!  
لتجيني في آلية خرساء من الانفعال:  
- يمكن عشان عايزة اتطمئن علي حسن نفسه!  
أو أمشي على نفس خطواته.. وأعدي من نفس الأماكن اللي عدى منها..  
كدكتور تقدر تقول.. إني مدمنة ليه..  
أكد انت لو تابعت حسن حتعرف إنه مادة رجولة إدمانية صعب التخلص منها  
إرادياً..

ومضت رقية تروي لي قصتها وحسن. وأنا أستمع لفتاة غارقة حتى الانغمار  
في مستنقع الشهية، تروي لي خطواتها الهادئة كمنوم نحو هاوية احتراقها،  
وخطواته الواثقة كخبير تنقيب بخبايا ممرات الأنوثة الداخلية..  
لم تكن قصة حسن.. وفتياته.. لتصلح أن تلقى في مخازن ذاكرتي كحالة  
عابرة بتوابعها..  
لم يبدأ الأمر برقية..

ولكن عبر رقية وحدها سأفهم كيف يتمكن الفتى من استدراج فتاة مشبعة  
بالتربية المحافظة.. ومنتشربة بالخوف والتردد.. نحو فراشه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتروي لي رقية زحفات حسن الهادئة خلف أسوارها!  
يكتب حسن يومًا لرقية في اعتراف متجرد من التلون:  
(العفيفات شريفات فقط لأنهن قبيحات لم يجذبن أحدهم بما يكفي ليضع  
على عاتقه هتك أسوارهن.. وتذوق خباياهن..  
فلا توجد امرأة ما كاملة العفة.. إنما توجد امرأة لم تكن جميلة بما يكفي  
لتستفز ذكورة اقتحامية عابرة..

هكذا بدأت تروي لي من حيث انتهى الأمر..  
حين انتهى بهما على فراش متواضع بغرفة مغلقة بشقة تحمل اسم الدكتور  
حسن شريف جراح الفم والأسنان بلافتة ضخمة على بابها..  
يتأملها حسن في هدوء متربص.. يحاول ألا يتعجل تخوفها النابض..  
هو كان يرى أن مفاتيح ممرات النساء كلها مصكوكة باسم التاني..  
والانتظار!!

فمن تأنى امتلك.. ومن تعجل.. انطرد من ممالكهن..!!  
كيف يمكن لفتاة ما لم يكن يمر على أعني أحلامها شطحًا أن تجلس وحيدة  
مع شاب بعيادته غير المسكونة بالزوار.. أن تفعل ذلك مبتسمة وعلى بعد

بضعة أسابيع من فعل أعز صديقاتها ذات الأمر مع نفس الرجل على نفس الفراش!!

تلك القصة التي ستحدثني رقية عن تفصيلاتها!  
(منهجية نزع الحساسية) هكذا أصيغ ما تخبرني عنه رقية.. كاتمة أسرار حسن قبل أن تكون رقمًا جديدًا في عداد حبيباته.  
حسن طبيب الأسنان الشاب.. ذاك الرجل الذي يصبح صوته الهامس جوار آذانهن وهن متكئات على كرسي الأسنان يصنع بالروح ذات صنيع أمبول (بنجه) باللثة!!

صاحب الوجه الدافئ.. والبسمة الحانية التي لا تتبدد.. والصوت صاحب النبرة الرنانة المتفردة، المتسلل عنوة عبر مسارات أذنية حميمة نحو القلب..

- الدحلبة يا دكتور.. (الزن ع الودان أمر من السحر).  
إنك تتقل ع الطبخة لحد ما تستوي تمامًا..  
حسن بينومها.. ببيرمجها.. لحد ما تلاقي البنت نفسها أسيرة تمامًا بتعمل وتقول اللي عمرها ما تخيلت تعمله وتقوله!!  
بسمة مائلة نحو يسار المرارة قطعت حديثها لثانية ثم تابعت:  
- حسن مش بيحب بس لأ.. حسن بيجنده!!.. يعمل غسيل دماغ بطيء ومدروس..

.....  
أن تمنح «حسن» مدخلًا طبيعيًا لفتاة ما.. عبر زمالة أو صديق مشترك أو صدفة حديث عابرة.. فسيمنحك وصفًا دقيقًا لرحيقها الحميم خلال بضعة أسابيع!!

- عرفته عن طريق عيادته صدفة.. واحدة صاحبتني رشحتولي كدكتور أسنان شاطر فاتح جديد قريب من بيتنا في سيدي بشر..  
حضوره كان غريب.. كان أنيق أوي ف كلامه.. شيك ف نظرتة..  
تحس إنك قدام حد بيعامل المرأة معاملة الآثار والكنوز.. بحرص واهتمام رقيق..

- وقتها كنت بمر بحالة احتياج لوجود حد في حياتي..  
البنت مننا بتبقى محوشة عاطفة وفي لحظة بتوجهها تجاه حد بيظهر في الوقت المناسب!

- بيتنا عبارة عن بيت مصري نموذجي، والدي مهندس في شركة اسكندرية للبتروول ووالدي موجهة فيزياء في حي المنتزه..  
بيت ناجح لكن معدوم الحرارة.. مفهوش غير (اضربي دماغك في الحيط) و(اتفلقي) و(اشرب م البحر) من صغرنا!

إن كلمات كتلك حينما يوجهها الآباء للأبناء حين يغضبون أو يصرون على طلب ما.. كذلك ما يقبع وراءها من ازدراء أو تجاهل لمشاعرهم له أثر بالغ

السوء على نموهم النفسي..  
تجعلهم يشعرون أن مشاعرهم بلا قيمة.. وأفكارهم لا يؤبه لها..  
فتنتج أحد نمطين بلا ثالث.. إما نمط انسحابي يخشى الرفض ويتعد عن  
المواجهة ويتحرج من التعبير عن دواخله ومشاعره بأريحية.. وتنمحي لديه  
الحرية الانفعالية..  
أو نمط آخر مهووس بتقدير الآخرين وآرائهم.. يسعى بشكل مضمّن للحصول  
على قبولهم.. يسكنه نوع من الخواء إن لم يخبره آخر أنه محبوب ومقبول  
وجيد..

أي أنها تنتج متسولين للمدح والاستيعاب. ورقية كانت من هذا النوع!  
وحسن وحده منحها ما كانت تحتاج إليه بشدة!  
لم يكن وجه حسن وطريقته بالتودد بالطريقة التي تحفز دفاعات المرأة  
وتشخذ أسوارها الأمنية..

فكل فتاة مزودة بطرائق كشف المتسللين لدواخلها.. لذا لم يكن لتصلح  
وسامة ظاهرة أو جسد ممشوق أو غزلية صريحة في اقتحام فتاة ما..  
فكلها وسائل فجة تطلق أجهزة الإنذار ودعوات التمنع والدلال داخلهن!  
أما حسن فكان لديه كاشفات حساسية تسبر أعماقهن، وتلتقط إشارات  
افتقاد الاستيعاب.. وطلب الاحتواء..

لديه حاسة غريبة لاستقبال الجوع الأبوي المستتر داخل فتاة ما تتحسس  
نظرة تخبئها (أنها مقبولة كما هي).

- حسن كان يقدر يحسس أي بنت بأنها جميلة.. جمال واقعي مخصوص..  
جمال بطعمها هي..

بيغازل ف كل بنت بصمة جمالها المختلفة..

بيديني إحساس إنه شايفني..

كلمات رقية تدوي في ذهني منصهرة مع صورتها بكحلها الصارخ وأحمر  
شفاهها اللامع ووجهها البهي..

هكذا هي المرأة تتزين دومًا.. متمنية أن ترتطم يومًا برجل يرى من خلال  
زينتها..

مساحيق المرأة ليست للتجميل.. إنما للاختفاء!!.. لتشفير جماليتها  
الداخلية.. في انتظار مجسات خاصة لرجل يستوعب تفردتها!!

المرأة تحمي نفسها بمساحيقها التزيينية من عيون العابرين بحيث تلفت  
انتباههم عن دواخلها إلى ظواهرها..

التبرج محض تمويه أنثوي!!

- أنا مش قادر افهم التناقض ده.. يعني هو زير نساء وذئب بشري سادي..  
ولا عاشق مثالي..

لتجيني بعفوية قاطعة قصتها..

- ما ينفعش يتصنف.. أنا بشوف حسن الحبيب المعقد اللي بتتمناه كل ست في الدنيا..

غلطاته هي أخطاء ابنها.. وغزله بيشبع افتقادها للحبيب.. وقسوته وخشونته بتلمّس مع جوعها للأب..

كان وجهها قد زال احمراره.. وبدأت تترك لجسدها المتأهب حرية الاسترخاء قليلاً وتترك لحكاياها العنان دون تلثم أو لملمة محرّجة للحروف.. وتقول بجرأة واضحة وهي ترخي ظهرها على الأريكة وتحرر انطباق يديها:

- بس أنا مش عايزاك تفهم غلط.. احنا ماوصلناش للحد اللي انت تخيلته.. هو مش مؤذي..

يعني مايقعش..إنما بيزور من ع الوش..

أو تقدر تقول مش بيدبس نفسه!!

تديسة حسن الجوانية الوحيدة.. كانت سارة..!

هي سارة.. ثانية!!

أزمته الأساسية التي أفقدته اتزانها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنما يحكم الرجل في انجذابه للأثني غريزة المطاردة..

ذلك ما بقى له من سمات الضواري..

لا تقنعه الفرائس السهلة.. أو المستسلمة التي تأتيه تستلقي على مذبحة طوعًا.

إنما يرى الرجل في تمنع المرأة في الابتداء مزيدًا من لذة الظفر في

الانتهاء.. وفي دلالتها وصعوبتها الأولى انتصارًا ذكوريًا حين الوصول!

إن الرجل ليتحقق من ذكوره عبر صراع عشقي..!

سارة.. فتاة منتقبة بيضاء ناعمة كما تشي بذلك مقدمة جبهتها البادية من

نافذة العينين بوشاحها.. بعينين خضراوين يحفظهما حاجبان صبتهما العناية

الساوية بتنفيذ ملاك ذي موهبة نحت إبداعية متفردة..

يمكن لأي رجل أن يستنتج بمستقبلات الذكورة فيه تلك الفتنة القابعة خلف

استتارها.. تلك ظنون ذكورية عابرة.

ووحده حسن.. كان مستيقنًا من ظنون العابرين..

فهو وحده من قد رفع أغلفتها يومًا.

جاءت يومًا (رقية) بالم مقطوع بأحد أضراسها ترافقها صديقتها (سارة) إلى

عيادة طبيب الأسنان الشاب الذي ذاع صيته بسيدي بشر مهارة وخلقًا!!..

هل كان حسن طبيبًا ماهرًا.. بقدر ما كان حضوره الطاعني يسحر الناس عن

حقيقة مهارته الطبية المجردة؟!

ابتسامه واسعة يستقبل بها حالاته.. تتسع أكثر أمام فتاتين يدخلان عرينه

كحملين شردا عن قطع الحماية..

هو يدرك بسرعة أنه عما قليل تقفز إحداهن طوعًا داخل قدر طهوه ذات ليلة..

رقية تعبئُ الجو بهرموناتها الصارخة.. أمام ذكر بادي السيطرة..

وهو بخبراته بالصيد كان يشم نكهة انجذابها بالهواء حوله..

ولكن لم تكن رقية من تعنيه!

إنما سارة التي احتجبت انفعالاتها وراء قناعها الأرجواني... فلم تستطع حواسه إدراك تأثيره عليها..

نوع جديد لم يذقه يومًا.. وتحذُّ أكبر لرجل تعاضم ملله من مهارته وأصابه

الضجر من حصوله المستدام على كل ما يشتهي!

كانت يده تعمل بعصب ضرس رقية.. وذهنه معلقًا بتلك القابعة على مقعد

الانتظار يبدو عليها أمارات اللامبالاة بحضوره..

يلقي بعض (الإفيهات) المزاحية.. فالفكاهة أحد مداخل الأنثى.. تعتبرها أمانة

جاذبية.. فوحده ذكر مستقر يستطيع أن ينشر عدوى الضحك..

وحدها رقية تنزلق في مجاراته..

وتقابله سارة بصمت منغلق.. ومتابعة هادئة.. تشيح بعينها سريعًا كلما قذفها

بأحد تأملاته..

التجاهل لذكر قد اعتاد تعلق الأنظار به.. سلاح الأنثى الأعظم..

وفي حالة سارة كان خطيئتها الكبرى!..

فلم يكن حسن ليستغزه النقد أو الكراهية.. فقد كان متصالحًا مع كونه كائنًا

قطبيًا يثير أحد شعورين بلا توسط؛ فإما انجذاب تقديسي أو كراهية مقيئة..

ولكنه لم يكن يحتمل ألا يثير شيئًا ما.. لم يكن ليطبق التعامل الحيادي

بحضوره!

التجاهل كان يصدر له رسالة ضمنية (أنت لست شيئًا يستحق الانتباه)..

رسالة كفيفة بقتل نرجسي مثله!

تجاهلها له كان مسئولًا عن جعل خاطرات ليلته تلك مشحونة بسارة..

ويستدعي كافة إمكاناته الذكورية الجريحة..

وفي ذات الوقت من الليل.. كانت رقية ثملة برائحة عطره التي تعلق

بثيابها تنتظر جلسة الحشو القادمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل يعد الأسد في اصطياده للغزال متوحشًا!!.. وهل يمكننا الحكم بعدم

أخلاقية أداء كائن ما لدوره الطبيعي المفطور عليه..

بالغباءات تقسيماتنا المحاكمة للطبيعة.. بين الأليف والضاري!!

وهل لدى الأليف خيار في ألفته.. أو لدى الوحشي حربة حقيقية في

توحشه؟!

إن جينات الذكورة الاستثنائية تسعى دومًا للانتشار والتعدد..

وأنه كلما زادت الإمكانيات الاحتوائية لذكر ما.. زادت خطورته لكونه مبرمجًا على اقتناص أقصى ما يمكنه استيعابه من الإناث ليبذر جيناته أكثر! فهل كان حسن إذن ليتمكن من أن يكون غير ما كان عليه.. لنحكم عليه؟! كان الفتى يلمح حضورًا أثوبًا مميزًا.. يتنشق نكهة تميزها.. وعبرها يحسن اختيار طعوم فرائسه..

(لا تحدثها فيما تحب أنت.. هل رأيت صيادًا يضع في صنارته برتقالة!!!). فلكل امرأة مدخلها الخاص.. وكل أنثى كيان متفرد لا يشبه أحدًا.. أنت فقط تحتاج إعادة استدعاء لتلك الحواس الذكورية الضامرة فيك.. والتي تخبرك بأبوابها المهجورة في غفلة دفاعاتها.. هكذا يخبرني حسن في لقاء ما.. كيف يمكنك أن تحمل امرأة إلى فراشك.. لسن سواء!!

فالفتاة الجائعة للحب الأبوي.. افتح لها حضنك في صمت.. وعما قليل ستسقط فيه كبرادة حديد تشتاق مغناطيسًا.. متجردة من الإرادة نحو الحتمية الطبيعية!!

أما تلك المشبعة بأب جيد وطفولة مستقرة... فإن فتحت لها حضنك ربما صفعتك.. إنما امنحها مشهد رجل عميق في لحظة شرود مأساوي.. وستفتح هي لك فضاءات صدرها لتضطجع..! فإن تشبعت حاجات الطفلة فيها فستبقى حاجات الأمومة معطلة.. فلتمنحها براحًا لتتفعل!

والنتيجة واحدة..!! وكان حسن كحرباء ذكورية بارعة التلون.. يلتقط إشارات الأثى غير اللفظية.. ويمنحها ما تريد.. كان حسن يبدو دومًا كما تشتهي أحلامها.. وليمة دسمة أمام جوعها المتراكم توافق شهيتها الخاصة!

فيصير الوجودي المهموم أمام مفرطة الأمومة.. والمسيطر الاقتحامي أمام المثالية الحالمة.. والأبوي الدافئ أمام عطشى الاحتواء!! هو لم يكن يخطط أو يدبر.. كان خبيرًا إلى حد العفوية.. وعفويًا إلى حد الخبرة

لذا لم يكن ليخدع سارة مشهد الملتزم الذي يوقف جلسة الحشو ليهرع للصلاة.. ولا يستفزها مثلًا كتاب يلقيه على مكتبه بادي العنوان يوحى بالتدين..

تلك افكار ذكورة الصف الثاني.. ومكر ذكوري مستهلك.. لم يكن ليستخدمه رجل بفطنته..

إنما (التلعثم الاستثنائي) تلك كانت خطته..!! أن يبدو مسيطرًا عابثًا فكاهيًا منطلقًا مع رقية أمام سارة..

ليتبعه تلغثم خافت وارتباك لحظي شفيف مع سارة تلتقطه حواس الأثى  
داخلها..

كان يريد أن يصدر لها معنى كان وحده سيفتح له أبواب أسوارها الحصينة..  
(إنتي استثناء كريم على هامش التبجح.. إنتي تويتي).

فإن يوارى الذئب مخالبه الفاضحة.. ضرب من حماقة..  
ولكن أن يظهر مخالبه بتبجح أمام الجميع.. ثم يمر جوار حمل عابر فيتجنبه  
افتعالًا وتكلفًا وكأنه يخشى إيذائه بها.. كفيل بأن يحمل الحمل طوعًا إلى  
أنيابه...!! وصحيفة طعام عشائه!

وذلك ما أسقط بين يدي الذئب يومها الحملين معًا.. سقوطًا ثنائيًا..  
رقية الشقية المنفتحة تنتظر اقتحاميًا متمكنًا من أدوات ذكوره..  
وسارة تلتفت إلى ذلك المتبجح المتسلح.. وهو يلقي أمام خضراوية عيونها  
الحيية أسلحته..

كان حسن يمنحها استسلامًا خادعًا.. وهو يمني نفسه بمذاق جديد لامرأة  
حصينة.. لم يذق مثلها قبلاً!

لم يكن يدري الفتى أن فخاخه.. ستصيب يومًا قدمه هو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



إن تقابل أي شخصين هو تمامًا كتقابل مادتين كيميائيتين... فمهما كان التفاعل بينهما.. لا يمكن أن يبقى أيُّ منهما على حاله السابقة!  
(كارل جوستاف يونج)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



هل كان حسن يحتاج أكثر من أربع جلسات (تنظيف عصب) و(حشو) دائم و(تليسة).. ليحصل على مدخل دائم لرقية عبر رقم هاتفها.. ولفت انتباه سارة لمعاملته المنمقة شديدة الحرص.. والاستثنائية المتلعممة أمامها؟ وهل يحتاج الرجل في عصورنا الحالية أكثر من رقم هاتف أو عنوان بريد إلكتروني.. ليحظى بامتصاص رحيق فتاة ما!! ما كان يحتاج للوصول لسارة سوى صداقة صديقتها! وما كان أعمق كثيرًا من الصداقة..

- إنتي كنتي مشدودة لحسن من أول يوم؟  
هكذا سأل رقية قاطعًا عنها إحدى نوبات شرودها بالحكي..  
- الانجذاب لحسن شيء غير إرادي.. حاجة كده لازم تحصل..  
وسارة نفسها كانت مشدودة ليه جدًا.. وقالت لي ده فعلاً في طريقنا للبيت وأنا شفائفي متخدر بالبنج.. وكأنها بتحاول أن تعلن وضع اليد! رغم أنها ما أظهرتش ده ليه نهائي!  
حتى سارة..!

هكذا تطفل تساؤل صامت في ذهني!  
يا للنساء!! هن موجهات بالبحث عن الأمان..  
وتلتقط بُوصلاتهن إشارات الأمان فقط لدى ذكر عابر لا يجدن بين ملفات حضوره أثرًا لخوفه!!  
فيسقطن حتمًا برجل لا يخاف.. فوحده يدغدغ حاجتهن الجمعية للمأوى..  
وتلك كانت صورة حسن دائمًا.. كرجل بلا سقف ولا سلطة فوقية ولا رهبة ولا تردد..!

ووحده رجل لا يخاف قد تجد سارة وغيرها مشقة في ألا تسقط في تتبعه..  
وتمنيه!  
غريزة أنثوية شائعة.. أن الرجل الخطر ربما يشكل مأوى يؤمنها من أخطار غيره..

وكان الأثنى في الانتماء لرجل خطر.. تخافه فتأمن كل ما سواه!!  
ابتلعت رقية ريقها وهي تواصل ماطة شفيتها:  
- أنا ساعتها حسيت بأول توتر حقيقي بيني وبين سارة.. حسيت اننا انجذبنا لنفس الشخص.. تصدقني لو قلت لك إني جالي شعور كده إن الموضوع ده مش حيتم على خير..

بس اللي كان مطمئني اني كنت شايفه حسن مركز معايا وغروره مانعه إنه يرمي على سارة اللي كانت متجاهلاه بقصدها طول الوقت!!  
واستمرت تروي لي تفاصيل حيله.. فالأنثى لا تنسى أدق تفاصيل عزف رجل ماهر على أوتار حاجاتها النفسية..  
ذكاء حسن الذكوري كان يتجلى في قدرة مبهرة على الانتظار.. والاستفزاز والتوقع..

فروشته رقية الثالثة كانت تحمل علاجًا شحيح الوجود بالسوق.. ورقم هاتفه! امنح المرأة بعض الذرائع لمحدثك.. وكثيرًا من الأرباح والاحتفاء بهبوطها على حياتك.. وافرش لها وسائد الحكى وامح عنها وساوس الشعور بالاستئصال أو التشكك في أخلاقها إن بادرت بخطوة على استحياء.. وستنهمر نحوك بلا تردد!!

أعظم دفاعات الأنثى تقوم على زوجين من وساوسها: (كيف سيظن بي إن حدثته؟) (لا بد أنه يستثقلني....).  
فاقتحم دفاعاتها أولًا قبل أن تنشأ وامنحها طمأنينة الاحتفال بتنزلها على يومك.. ولن يشغلك بعدها موعد قبلكما الأولى..

وهكذا سيخبرني حسن في أزمنة بعيدة!  
لذا حين استغلت عدم توفر العلاج لتحدثه دون أن تدري أن الأمر مدبر منذ البداية:

- عيب تقولي كده يا آنسة رقية.. مفيش تعب ولا حاجة.. عمومًا أنا حسجل الرقم عشان لو احتجتي أي حاجة بأي وقت..  
هكذا طالعها صوت حسن الدافئ الرحب بهاتفها الأول.. يخدر حواسها..  
لم يحتج الأمر سوى ابتسامة كارتونية (إيموشن) عبر برنامج محادثة فور تسجيل الرقم.. وكثير من التمهل.. وخلال شهر واحد صار الحديث بينهما اعتيادًا مألوفًا..

- حسن ماحتاجش وقت كثير عشان يكون أول واحد أقول له بحبك.. أو أول حد يلمس إيدي..

من غير ما احس كانت خطواته هادية.. وممش متعجلة.. وبالتالي مخفتش منه نهائي رغم إن كل حنة فيه كانت بتوحي بالخطر!  
لحد ما جه اليوم واللي اتفقنا فيه اتفاق غريب..  
إني أروح له العيادة في غير مواعيد شغله!!  
ومكذبش إني كنت...

بترت رقية جملتها فجأة أمام طرقات على باب غرفة الكشف المغلق..  
- ثواني يا رقية.. دي تلاقىها سماح.. جايبالي قهوة..

كانت طرقات الباب أعنف قليلًا مما اعتدته من سماح.. مما أثارني.. ودفعني للإسراع نحو الباب مستشيطًا وأنا أتمتم:  
- إيه يا سماح.. بالراحة..

ولكن وجه سماح المفزوع لم يكن وحيدًا يطالعني أمام الباب..  
بل اقترن معه مبتسمًا في سخريته المعتادة.. وجه حسن!!  
- إيه رأيك بقى في أول جلسة ثنائية في تاريخ الطب النفسي يا دكترة..!!  
قالها وهو يدفعني بلطف.. ويقتحم الغرفة كعادته.. مستلقياً بجلسته  
المستهترة جوار رقية المذهولة كلية مثلي..  
تأمله ثلاثتنا وهو يخرج سيجارة (دافيدوف) ويشعلها وينفث أول أنفاسها في  
نهم وهو يقول:  
- اتفضلي انتي يا سماح.. كملني يا روكا!!.. وصلتوا لحد فين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد كان من المفترض أن الطبيب النفسي لا يبقى لدى القوم شيء  
ليدهشه.. فباطلاعه على عورات النفوس واسرار البشر.. لا يعود في وسعه  
أن يستغرب شيئاً..

ولكن عند حسن.. تذوب التوقعات..  
قد اندهشت حقاً.. أألجمني كالعادة حضوره العايب المفاجئ للحظات.. أخذنا  
تأمله مشدوهين مقدار ثلاثة أنفاس من سيجارته.. وابتسامتين..  
لملمت سماح نفسها.. وخرجت متأففة.. لتصنع له كوب القهوة الذي يبدو أنه  
قد طلبه في طريق اقتحامه لجلستنا.. وحده حسن كان يتعدى على سيطرة  
(سماح) على صالة الانتظار وتحكماتها في جدول مواعيدي.  
- باشا.. لو روكا قربت تخلص ممكن تفتح لنا مدة ثانية على حسابي.. أنا  
حابب إنني أحضر جلسة دوبلكس..  
كان يتحدث بمرح عايب دون أن يخرج السيجارة من فمه في استهتاره  
الواثق..

لم يشغلني حسن ووقاحته اللطيفة قدر ما شغلني هذا الانفعال البادي على  
وجه رقية.. التي التفتت نحوه كالممسوسة وهي تقول بشغف يناقض  
توقعاتي ثانية:

- إزيك يا أبو علي.. عاش من شافك!!  
حسن الذي نفث دخانه نحوها ونظر إليها صامتاً لوهلة.. ثم مد يده ليضغط  
علي أسفل رقبتها بدلكة حانية ربما مستغربة من مثله.. مميلاً رأسها لأسفل  
قليلاً بهدوء وهو يهمس بجملة أقرب لغزليات (الميكروباص):  
- واحشاني يا بنت..

ويجذب رأسها ناحيته بقوة محسوبة.. كشرع في احتضان.. وهو يتابع:  
- يا ترى بتكلمي عني وحش ف غيابي..؟!  
تلايكي محملاني مسئولية كل كلايخ ومشاكل العالم يا جاحدة!  
يثبت رأسها أمام عينيه في صمت مرهق لارتباكها..  
وأنا أشاهدهما..

أن تشاهد حسن أثناء مداعبته لامرأة.. وكأنك تشاهد جراحًا أسطوريًا يجري عملية دقيقة.. أو نحاتًا مبدعًا أثناء معالجته لصلاله..

لا تملك إلا أن تستشعر تلك الرهبة التي تصيبك أمام تمكن خبير! حاولت استعادة اتزاني سريعًا.. وأنا أبتلع تبعثري بهمهمة تمهيدية.. واتلهى بشخبطات متوترة على ورق الروشبات المستلقي على مكتبي.. ابحت عن كلمة تسبح في ذهني لأنطق بها كاسرًا صمتي.. ولكنه باغتني:  
- أنا جاي أملًا فراغات الحدوتة.. عشان ننجز.. لأن أصل المشكلة اللي احنا محتاجينك فيها.. لا أنا ولا رقية..

بدت على وجه رقية الذي تحرر لتوه من يد حسن أمارات ضيق وقلق تشي بغيرتها التي تجتهد في إخفائها.. وظهرت رجفة غضب في صوتها وهي تكمل كلامه:

- سارة برده.. كل حاجة ف الدنيا بتدور حوالين سارة!!  
تجاهلها حسن تمامًا وهو يسألني: عند أية نقطة في الحكى توقفنا ليلتقط هو طرف الرواية من عدسته.. ويتابع اطلاعي على خطيئته الأعمق...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت أيام قلائل كافية لتسقط رقية تمامًا في فخاخ حسن.. الطريق إلى قلب المرأة عبر أذنين..  
فأن تمنح لمخبوءاتها إنصات أذنك.. وأن تداعب أذنها بحلو حرفك.. لا تدري الحمقاء أن كل منصت شغوف.. هو صورة زائفة لعاشق مثالي.. وكل متحدث بارع.. هو كاذب ممتاز!!  
كانت رقية محض محطة عابرة نحو (سارة)..  
علاقته برقية كانت مجرد استراحة محارب معتادة على أعتاب معركته الأخيرة.

أو ربما هي كانت علاقة نفعية تمنح حسن ما يكفي من المعلومات عن تلك التي تطفلت على ذهنه ولم يتمكن من مدافعتها..  
وتمنح رقية عشقها الأكثر دسامة.. ووجعها الأعمق..  
فأمثال رقية كان حسن يحمل كتالوجًا مفصلًا للوصل إليهن وخرائط واضحة المعالم للإبحار في عوالمهن.. فلم يكن فيها ما يثيره، كل شيء بها كان يبدو اعتياديًا ومكررًا رغم جمالها الأخاذ!

- سارة بتشتغل تيلر ف بنك أبوظبي فرع محطة الرمل!  
هكذا أخبرته رقية في لامبالاة أمام استجوابه يومًا..  
- إزاي منتقبة وبتشتغل تيلر ف بنك؟.. غريبة دي..  
- باباها كان ماسك منصب مهم في إدارة البنك.. وقبل ما يتوفى من سنة ونص قدر يوفرها الشغل ده.. وحارب فعلاً عشان الاستثناء ده هو جمالها وكاريزمتها اللي كانت بتظهر رغم النقاب ساعدتها.  
إذن هي تعمل في البنك.. وأب حديث الوفاة..

ربما هذا ما كان يكفي حسن.. ليقتم بخبله المعتاد في الصباح التالي.. فرع البنك.. ويقف أمامها مبتسمًا حاملًا رقم إيداع.. يراجع تدبيره..  
- أستاذة سارة.. مش عارف حتفتكريني ولا لأ؟  
يسأل في خبت رغم كونه يدري أن مثله يعيث في حواس الأنثى فسادًا فورًا..

عصي على النسيان ولو من لقاء عابر وحيد..  
هل كانت سارة لتدرك حينها أنه ربما لن تنفعها يومًا أية قوة كونية لتنسى إبداعات عشق مستقبلي تبرعم هناك!  
أو كان يدرك هو أن من ظنها ستصبح مجرد رقم في عدادات إنجازاته.. ربما ستكون مباراة اعتزاله الأخيرة!  
حساب عابر اصطنعه يومها خصيصا وبضع آلاف من الجنيهات في إيداع عابر كانت مدخل حسن إلى بضع دقائق مباشرة مع سارة أشراها حسن عبر هذا الإيداع الذي لم يكن يحتاجه حقًا..!  
المرأة ليست كما يشاع سطحيًا اقتصادية مادية التوجه يجذبها الرجل صاحب الأموال...  
ربما هي تحب أن تقترن برجل يملك المال ولكن دون أن يعنيه.. ولا يقيم له وزنًا..

فوحده هذا الرجل يملك من الوقت والتفرغ الذهني ما يمكنه أن يمنحها دون أن يضيعها!  
فاقتصادية المرأة راقية في باطنها.. تود رجلًا مأمون الامتزاز لا يضيعها وأطفالها.. ولكن دون أن ينهكه التجميع ولا يستهلكه الاقتناء فلا يجد متسعًا لثريتها برأسه المشغول!  
ذاك هو الرجل المثالي في نظرها.. الغني اجتهادًا ذاتيًا غير المكترث بالمال.. لذا يبقى التوصيف الأنثوي الشعبي له (راجل مرتاح)!  
وتلك الصورة التي كان يحرص حسن على تصديرها بخفاء.. في خلفية حضوره الذكوري..  
- أهلاً وسهلاً.. ازيك يا دكتور..

قالتها سارة بدفء فاجأه.. حتى ظنه تودد خدمة العملاء الرسمي المحايد.. وربما هي المرأة حين تختلي نسبيًا برجل فتتجرد من تنمقاتها الاجتماعية.. وقناع التجاهل التعففي.. وتصير محض أنثى أمام معشوق استثنائي محتمل!  
المرأة كائن متطرف.. لا تبحث عن حب.. قدر ما تبحث عن هوس.. كل النساء ترتكز في جيناتهن القابلية لإدمان رجل ما لا مجرد حب هادئ!  
لذا تنفر من كل نمطي وتنجذب إلى كل رجل غير اعتيادي.. وكل خطر.. وبراق..!!

تتهي له سارة المعاملة بانسيابية وود مستغرب.. وتودعه بابتسامة بادية كمنحوت وجهها الضاحك من تحت النقاب..

يتخيل حسن.. مع امتلاء خديها البادي مع ضحكتها المستترة.. ألا يمكن أن تكتمل لديه صورة وجهها الأبيض الرخامي وخضراوية عينيها دون نغازتين.. سيخبرها يومًا ما أنه يومها قد راهن نفسه (أنه عما قليل سيقبل نغازتيها)!! ويرحل حسن ليعود.. مرارًا.. شبه أسبوعيًا ولشهر كامل.. كان يحمل بعض المال لإيداعه في حسابه الجديد.

لا يحتاج الأمر تخطيطًا وتدييرًا لتصل إلى تحويل الحديث مع امرأة من إطاره المهني.. لنوع آخر أكثر حميمية.. فقط اجعلها تعتاد صورة وجهك الباسم الأليف..

وغابت سارة عن عملها يومًا.. وذاك كان كل ما يحتاجه حسن ليتذرع بخطوته الحرجة وسيله للخروج عن النص!

ويلتقط حسابها الاجتماعي من قائمة أصدقاء رقية على الفيسبوك... ويبعث لها رسالة في صورة رسمية لطيفة دون مزيد ترصد كبرقية اجتماعية.. ولا ينتظر الجواب..

(لم أجدك اليوم بعملك كالعادة.. أتمنى أن تكوني بخير..!! والسلام).

كان رسميًا في رسالته لئلا يمنحها رفاهية التوجس والإعتراض.

لم يكن (حسن) بحماقة الرجل المترصد والمتطفل وكثير الكلام بالبدايات.. فيحرق ذكوره إراديًا بكثير الثرثرة فلا يبقى لديه شيء ليثير شغف فتاة به.. فعلاقة المرأة بالرجل يقودها فضولها الأنثوي لاكتشاف ممراته ومخابئه.. وتحسس غوامضه..

لذا كان حسن في رسالته المقتضبة يمنح هواجسها فرصة للعمل.. ويجند أفكارها وخيالاتها وفضولها الأنثوي لحسابه..

كان يعلم أنه منحها منه ما يكفي ليثير اهتمامها.. بين حضوره وتميزه في عمله وطلته ولباقته.. إلى حسابه الاجتماعي (الافتراضي) الواشي بذوقه الموسيقي المتفرد وكلماته المنتقاة.. إلى علاقته بأصدقائه التي يظهر فيها دومًا كذكر (ألفا) بادي السيادة..

هو كان يدرك أنها حتمًا ستمر بأرضه الافتراضية وتجول بحساب (الفيسبوك) تتأمل طبيب الأسنان المثير للريبة. وربما تطالع منشوراته وتعليقاته وتتمر بنوعية استماعه لموسيقى ربما لم تكن تعلم شيئًا عنها وقراءاته بكتب قد يعيها فهم عناوينها وإعجاباته بأفلام لم تسمع عنها يومًا!!

لذا كان ينحت حسابه بالتميز وبعامله كبطاقة تعريف وفخ شهري في أزمنتنا الافتراضية.

إن ذائقة الرجل المتفردة تجذب المرأة.. لأنها ترى في احتماله انجذابه لها ما يعد شهادة لها نفسها بالتفرد والاستثنائية!

هكذا فرش لها الطريق رحبًا لتخطو خطواتها التالية.. أو ربما لتمنحه ضوءًا أخضر ليقفز هو..

أخذ نفسًا عميقًا.. وعاد لحياته الطبيعية.. ينتظر..

بعض الإعجابات العابرة.. واحتكاكات اجتماعية افتراضية خافتة..  
ثم.. غيبة!!

هذه المرة منه هو..!

اغلق حسابه.. وتوقف عن الإيداع لأسبوعين..

إن غيبة الرجل الذي تبدو عليه أمارات الإعجاب تفقد المرأة اتزانها..  
تمنحها مساحات للتساؤل..! (تقنية الغيبة المفاجئة) إنها تفلح كل مرة..  
امنح المرأة فيصًا من الاهتمام.. وشلالًا متدفقًا من الانتباه والتركيز ثم  
اسحبه فجأة بغياب غير مبرر..

ولن تحتاج لربع طاقتك عندما تعود..

- هي اللي كلمته المرة دي..

هكذا قالت رقية في عصبية بادية وهي تقاطع حكي حسن..

- يا أخي دي كأنها حرب مش مجرد علاقة بين راجل وست..

وهكذا تجاهلت أنا مقاطعة رقية.. وأنا مشدوه بتعليقات حسن ومستغرق في  
تفصيلاته.. وتحليلاته للتوتر الأول في قصص الهوى..

ربما كان سيصيني الملل بعد عبارتين يمثل هذه التفصيلات.. ولكن حكي  
الفتى كان تحليلًا نفسيًا مركزًا لنفسيات معيارية للرجل والمرأة خطوة  
بخطوة..

لتعود رقية بتأفها الواضح تتابع:

- هي اللي كلمته تسأل عليه المرة دي.. وكأنها كانت بترد له سؤاله  
بشياكة..

لكن من غير لف ودوران هي كانت سكرانة بيه..

راجل بيظهر إنها مهمة ومختلفة وفي نفس الوقت شكّل حياته بيدي لها  
إحساس إنه مجرد راجل جنّتل شبعان بنفسه بيعامل الناس كويس..

يعني ده كان يحيرها: هل هي مجرد رقم عابر لشخص شيك في معاملته.. ولا  
فعلًا طفرة في حياته!!

الحيرة دي ممكن تخلي أي بنت تجتهد عشان تعرف حقيقته..

و كانت سارة تمر في الأصل بحالة وحدة بعد غياب أبيها اللي كان فعلًا أب  
مثالي.. وكمان حالة من القرف من نوعية الناس اللي بيتقدموا في بلادنا

لمنتقبة!

الأب الجيد يموت مبكرًا!!

ويترك لابنته أزمة نفسية ضخمة.. ربما تفوق ما يتركه الأب المؤذي أو  
الجاف.. الذي غالبًا ما يعمر طويلًا!

تلك ظاهرة كونية غريبة..

كانت رقية ترى أن ظهور حسن في هذا الوقت بالذات مؤامرة من القدر  
على فتاة في أقصى لحظات الافتقاد وتوهان المشاعر!

وأنا أتساءل: وهل الحب في حقيقته سوى فعلٍ استغلالٍ لافتقاده.. وملو لل فراغات..؟!

قد بدا على وجه حسن عبوس عابر.. كرجل تم تجريده عنوة لتوه من أكبر إنجازاته.. وخلعت عنه نياشينه التي تبعث على الفخر..

- قومي روعي يا رقية.. خلاص جليستك انتهت!

قالها حسن بصرامة.. وهو يجذب رقية من يديها لتتصب واقفة بيديه في استجابة تلقائية وتلملم حقيبتها وهي تنظر إليّ في توسل ظاهر..

كان الأمر خارجاً عن نطاق عملي المعتاد كطبيب نفسي.. الفتى السيكوباتي المخبول يحدد المواعيد ويقرر من يجلس ومن يرحل!

دقائق وكانت رقية بالخارج تحاسب سماح على جلسة غريبة.. وخيط من الدموع التي اعتادتها سماح على وجوه الراحلين تملأ عينيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



إننا لا نكون أبدًا أقل من البؤس والمعاناة قدر ما نكون كذلك ونحن  
نحب!!

(سيجموند فرويد)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- هو انت ايه اللي مصبرك على حسن ده؟  
مش عارفة يا دكتور انت عاجبك جناه ده.. ولا دي شفقة عليه!  
هكذا ستحدثني سماح سكرتيرتي ذات يوم..  
- هو انتي شغل النفسية نصح عليكى انتي كمان للدرجة دي يا سماح.. بقيتوا  
كلكم محللين خلاص!!

تساؤل سماح كان متطفلاً على ذهني دومًا أمام سلوكيات الفتى الخبلية..  
وحدها سماح هي من كانت تكره حسن بوضوح لما يشكله من تجميد  
لسلطتها على العيادة وتطفل على ترتيباتها التي كانت تبقيها منذ عامين  
سكرتيرتي غير القابلة للاستبدال!  
منذ أن جاءني بها والدها العجوز الذي كنت أعالجه من التهاب بالأعصاب  
تتاجًا لغضروف ظهره المتآكل حين كنت أبحث عن بديل لزهرة سكرتيرتي  
الأولي التي ضاقت ذرعًا بالعمل في صالة انتظار مكتظة بالمهاويس  
والمتأففين!

سماح الفتاة ذات التسعة عشر عامًا البيضاء ذات النمش الخفيف علي  
جانبي أنفها المدبب الرقيق والشعر البادي من مقدمة طرحتها، تبدو مثلاً  
نموذجياً لفتيات خدمة العملاء وبائعات الملابس في المولات بوجهها المتبيس  
في وضع الابتسام والقدرة المذهلة على الكذب في اختلاق أعذار الطبيب،  
والقدرة الاستثنائية على الثثرة لامتناس أوقات المنتظرين وتأفهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- حكمل لك حدوتي مع سارة..  
ولكني قاطعته بصرامة تفوق صرامته:  
- لأ.. كلمني عن طفولتك..  
قطب حاجبيه.. وبدا على نظرة السيادة في عينيه ارتعاشة خافتة.. ثم أعاد  
ظهره للوراء وابتسم في خبث:  
- عاوز تعرف ايه؟  
انت شايف يعني إن طفولتي هي السبب في صناعة المسخ اللي قدامك ده!  
يمكن..

المسوخ بتصنع مسوخ.. والوحوش مش حترضع غير وحشية!  
- ليه بتقول مسخ يا حسن.. انت بس متلخبط.. متبعتر من جواك..  
يمكن بتدور على حاجة.. يمكن ماشي زي السكران.. أو زي طفل تايه في  
السوق بينادي على أهله ويخبط ف الناس..

خبطاته دي مش جرايم ولا أذى على قد ماهي تشنجات حيرة ووجع أكبر..  
تأملت وقع كلماتي على وجهه.. لعلي أجد أثرًا ما يدفعني لمواصلة التنقيب..  
ولكنه وعلى غير عادته كان يحمل وجهًا جامدًا.. بلا تعابير.. يستمع دون  
اكتراث.. مما دفعني إلى الانعطاف نحو زاوية أخرى وأنا استطرذ:  
- طب قوللي.. إيه أول حاجة بتيجي ف بالك لما بتفتكر والدتك ووالدك؟ إيه  
أول ذكريات ليها قيمة بتطلع جوه دماغك لما بتفكر في طفولتك؟  
كانت تنهيدة تخرج من صدر حسن.. تبدو كطاقة ملل خرجت في زفرة  
مفاجئة.. وهو يجيني:

- أنا حريك بدل ما يتعبك التحليل والتدوير..  
انت عارف لما تدوس على نفس المنطقة من جلدك مرات ومرات..  
يحصل إيه؟

حتتبج!!.. حتمل!!.. مش حتحس فيها لا بوجع ولا بلذة..  
حتفقد الإحساس..

كلمني بقى انت بالطب النفسي عن طفل عنده خمس سنين لسه شعوره  
بيتكون.. وسلك وصلة الكهرباء بيعلم في جسمه زي الكرايبيج.. بإيدين أم  
مريضة نفسية اتطلقت واترمت مع عيالها في أوضة في المساكن بالإيجار..  
مليانة بالإحباط وخيبة الأمل.. ولعنات نظرات الناس..

وحولت الطفل البكري ده لكيس رمل تفرغ فيه كل ده!!  
كلمني عنه وهو مربوط في السرير بالساعات.. عشان كسر كوباية أو فكك  
لعبة جديدة.. أو ضايق أخوه إسلام الصغير..

ساعات كثير لما كبرت كنت بأسأل نفسي عن طاقة الأمومة المشوهة اللي  
حركت انتهاك طفل بالحرق والتجويع.. والطرده من البيت عريان بس عشان  
غلط ف عملية حسابية اتشرحت له قبل كده..!!

يمكن انت ما تصدقنيش.. لأن العقل أحيانًا مش حيستسيغ وجود النوع ده  
من الأمومة.. أنا نفسي كنت بقول أكيد أنا كنت طفل سيئ جدًّا عشان  
أوصلها للمرحلة دي..

لحد ما كبرت وفهمت نفسيته..

أنا كنت عروسة التفريغ لواحدة ست مشوهة.. بتعاني من اكتئاب هوسي..  
ونوبات تدمير.. زي ما فهمت من علب العلاج وزى ما أبويا بعدين شرح لي..  
مريضة موثقة المرض معندهاش ما يكفي من الفلوس والوقت عشان  
تتعالج!!

أنا كنت قدامها زي نصب تذكاري لشبابها اللي اتخطف.. ورغباتها اللي  
اتدفنت.. وطموحاتها اللي دابت.. وكلام الناس اللي ناهشها..  
أنا كنت في عينيها رمز لكل حاجة أغضبته أو أذته..

كانت أنفاس حسن تتسارع قليلًا وهو يرفع قدميه عن الأرض ويتحاشى  
النظر لعيوني.. ويتمدد إراديًا على الأريكة ناظرًا لسقف الغرفة وهو يواصل

وكانه وجد مخرجًا لما احتبس من ذاكرته:  
- ساعات بدور لها على أعذار.. أو أقول لنفسي إنها كانت مش واعية أو  
مش مدركة.. وكان مرضها واكتئابها هو العدسة اللي بتشوف منها الدنيا..  
بس ده ساعتها كان بيوجه غضبي ناحية ربنا.. ناحية القدر.. اللي فتح القفص  
لوحش جعان.. وربما له طفل بالصدفة.. لسه شعوره ورؤيته للدنيا بتتكون..  
ده بقى بالطبط اللي حصل.. فضلت اتوجع كرباج ورا كرباج.. وحرقة ورا  
حرقة.. وجوايا حاجة بتتنطفي وانا بتكور على نفسي أمام عينين الجيران  
وهما بيخبطوا عليها وانا عريان عشان تسامحني وتدخلني!!  
كنت كثير باسأل نفسي ليه كانت بتصمم تقلعني هدومي قبل ما تخرجني  
للشارع مطرود.. قدام صحابي ولمياء بنت الجيران اللي عارفة إني بحبها  
حب العيال!  
لحد أما اتبنجت تمامًا..

وروحى نملت!!  
معودتش حاسس بحاجة نهائي..  
حتى الخوف اللي كان بيملاني وهي بتحضر حبل الغسيل وتربطه في رجل  
السرير وتلم وصلة الكهرباء وتتنها ف ايديها وتبدأ تدور عليا..  
الخوف ده معادش بيحيلي..  
كنت باخد بعضي وأديها إيدي بنفسي..  
واقلع هدومي بإرادتي.. وامتص كل نوبتها عشان اخوبا ينام يومها سليم..  
وهي تقع من الإرهاق على السرير وتصحى ثاني يوم مستعدة لباقي وظيف  
الأمومة!!  
فجأة معادتش (لسوعة) السلك بتوجع.. ومعادش نظر لمياء بنت الجيران ليا  
وانا واقف ع الباب عريان ببشغلني..  
صحيت فجأة لقيتني مش حاسس حاجة..  
لا وجع.. ولا سعادة..  
ومن ساعتها ما افتكرش إني حسيت ثاني!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن يبدو على وجه حسن متأملًا السقف أي أمانة للضيق رغم ما كان  
يرويه..

هل كان الفتى بحق قد أصيب ببلادة داخلية فلم يعد شيء يوجعه.. أم أن  
تلك القشرة الخارجية الصلبة كانت أحد دفاعات حسن البالغ لحماية حسن  
الطفل الهش المرتجف داخله..

هل كان انخلاءه الانفعالي أثناء حكيه وكأنه يروي مشهدًا فيلميًا لا تجربة  
حقيقية عاشها.. هو محاولة لئلا يغمره وجعها ثانية!

إنك أحيانًا تخبيئ الطفل الذي كنته بقبو ذاكرتك.. ذاك الطفل الذي تعرض  
مبكرًا لما لم تخلق أعصابه لتحمله!.. تحمل إليه القوت وتفتح عليه قبوه كل

مساء حيث لا أحد يراك..  
إن بلوغنا المبكر.. وحكمتنا الظاهرة أحيانًا ماهي سوى قشور حماية دفاعية  
لصغير مختبئ!

كان صمته الجامد اللحظي يدفعني إلى تساؤل نفساني آلي معتاد:  
- طب فإكر إحساسك قبل ما تفقد إحساسك؟  
لتقابل تساؤلي السخيف ضحكة مدوية من الفتى.. وهو يقول في مكره  
السافر الذي صرت أوقن أنه أحد خطوط دفاعه أمام المرارة:  
- أكيد مكنتش ببقى مبسوط يعني لما يقوم من النوم وأنا مربوط ومخاط  
العياط المسائي متجمد على وشي ومش قادر أفركه..  
في الأول كان أكثر شعور مسيطر عليًا اليأس الكامل!! إن مفيش مكان  
للهرب..

أصل اللي المفروض تهرب ليهم.. بتهرب منهم..!  
فمفيش مكان تستخبي فيه..  
عارف انت.. شعور انك مكشوف.. ومتعري.. ومفضوح.. بيديلك شحنة  
انهزام.. واستسلام.. بتجاهد بقية عمرك في تخطيها!!  
كانت ابتسامته الماكرة يجتهد ألا تميل منه نحو انزلاق بئس بزاوية فمه وهو  
يتابع:

ومع الوقت بقى طورت هواياتي الخاصة..  
مكنتش بغسل وشي لما تفكني.. إنما كنت بقعد في الحمام وعلى صوت  
الغسالة اليدوي الدوارة أفرك المخاط المتجمد ببطء.. أو ألعب في قشرة  
التعاوير على شفايفي وفخدي..  
وساعات كنت اتخيل علامات السلكة على جلدي أشكال فنية..  
يعني علامة منهم عبارة عن عجلة عربية.. والثانية عبارة عن حدوة حصان..  
وكدمة على دراعي بتبقى بركة ميه..  
وأبسرح معاهم ومفوقش إلا على صوت صرختها على باب الحمام عشان  
أخلص..

بس كان بيملاني تساؤل دايم: أومال العالم اللي بره يبقى عامل إزاي؟  
دافعت وجعًا قلبيًا خافتًا نبت داخلي.. ليس فقط من حكاياه وتصوري لهذا  
الطفل الخائف بلا مكان للاختباء.. بل أيضًا لتلك القشرة الفولاذية التي  
انصبت على انفعالاته.. فصار لا يمنح نفسه استحقاقًا للتوجع!!  
لم يستطع الطب النفسي بكل حكاياه أن ينزع حساسيتي الإنسانية تجاه  
الانتهاك الطفولي بعد..  
وكيف يمكن لتجارب عابرة بالطفولة أن تبقى تصبغ أفعال البشر ما تبقى  
من العمر!

ولما لم يمكنني أيضًا أن أنخرط في تعاطف بحت.. تابعت استجوابًا نفسيًا  
وأنا أتساءل بذات سخف جلسات توجيه الحكى النفسي:

- تفتكر ده أثر عليك إزاي دلوقتي يا حسن.. يعني إيه أبعاد شخصيتك وسلوكك اللي شايف إن التجارب دي بتحركها وبتوجهها؟  
مط حسن شفتيه في لامبالاة.. وهو يجيني بعفوية:  
- ما افتكرش إن ده بيوجهني.. أكيد أنا إنسان حر ومسئول عن أفعالي زي ما انت قولتلي أول مرة.. وماعودتش نفس الطفل ده..  
وكوني وقعت بالصدفة تحت إيدين مريضة نفسيًا.. أشوفه يديني مبرر أبقى المسخ اللي أنا عليه دلوقتي.. وأعذر ساديتي واستهتاري.. ده مش مطروح دلوقتي في تفكيرتي..  
ومظنش إني جيتلك عشان أحكيلك مشكلة طفولية. فتقولي معلىش يابني..  
وتقولي إن تجربتي دي هي المحرك لجرايمي..  
أنا عايز اتصلح.. مش عايز مطيباتي ولا مبرراتي..  
التقطت دفعة قيادة الجلسة ثانية وأنا أوقفه بجملة أخريسته:  
- إنت في حالة إنكار.. محدش جاب سيرة تبرير.. أو رفع للمسئولية عن أفعالك..  
إلا لو انت اللي بتقاوم فكرة جواك بتقولك كده وبتبررلك.. واسقطتها على كلامي..!!  
وف نفس الوقت انكار تأثير تجربة زي دي وتجاوزها والتغاضي عنها..  
والتركيز على ظواهر حالية ده برده علاج سطحي جدًا واكثر تفاهة من اني ابقى مبرراتي..  
ولكن الفتى يتمكن من استعادة الدفة وهو يقول باهتمام:  
- بس مش الانتهاك الجسدي اللي تاغيني أو بيحركني على فكرة.. إنما فلاش باك كل لحظة على الرجالة اللي كانوا بيخشوا بيتنا..  
على وضعها اللي كنت بشوفه قدام نجار أوبتاع ألوميتال.. أو كشاف النور..!  
اعتدلت بجلستي أمام مفاجاته المتتالية وأنا أسأله المزيد:  
- وضعها.. إزاي؟  
لم أستطع استكمال جملتي فقد وقف الفتى فجأة وأخرج من جيبه ورقة من فئة مائتي جنيه وألقاها على مكتبي وهو يندفع خارجًا:  
- جلستنا انتهت..  
حجيلك وقت تاني!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرة لم أنتظر طويلًا... لم يمنحني حسن متسعًا للتفكير وتأمل قصته.. فقط وجدته في اليوم التالي يحادثني عصرًا وقد بدا صوته يشي باستغاثة وراء ادعاءات التماسك الظاهري..  
هل يفيدنا الحكي والفضفضة حقًا!  
تلك أحد الأوهام الجمعية.. أن نظن أن بعض أوجاعنا قد تزول بإلقاء حواديتنا على مسامع غريب ما..

لا ندرك أن الحكيم أحيانًا قبل أن يحررنا يمنحنا إعادة معايشة ثانية.. وربما مزيدًا من الألم!

وهذا ما كان يمر به حسن يومها..إعادة معايشة لتجربته المؤذية القديمة تمنحه حفنة أذى مضافًا إلى صفعاته الذاتية وجلدات ضميره المستفيق توحشًا فجأة..

لذا لم يكن مستغربًا تعجله بطلب موعد جديد ليلتها.  
لم يكن حسن بالذي يمنحك اختيارًا بتأجيل أو رفض.. هو يجبرك على (لوي) جدولك عنوة ليوافق اقتحاماته.. فكيف وقد بلغت ألامه ذروتها..

وحول الحادية عشرة كان لقاءنا.. باختياره.  
كنت منهكًا ومحملاً بحكايا وشكايا عابري اليوم بكتبتي..  
لم يكن ينقصني سوى وجه حسن المشع ليعيد شحن بطاريات تحملي..  
- دلوقتي ١١:١١.. حداثر وحداثر دقيقة.. تعرف الموضوع ده..ظاهرة ١١:١١؟

هكذا بداني حسن.. لم يسلم كعاداته.. لا يبدؤني أبدًا بالمقدمات الاجتماعية أو تخوف البدايات.. كانت حرته تصبغ كل ما يخرج من فمه.. غير خاضع للقوالب أو التوقعات..

- أه طبعًا.. مدرسة يونج في التحليل النفسي أدخلت الظواهر الروحانية دي ف مباحث الطب النفسي.. فأكيد سمعت عنها يعني..

هكذا أجبتة وأنا أعيد ترتيب مكتبي وهو يتخذ مقعدًا لتكاءات قدمه ويضع بذات الجلسة الشبيهة بالنومة المستهتره.. نصف جسده على الأريكة وقدماه ممدودتان على مقعد آخر!

- أنا أقصد هل أنت جربتتها.. عمرك طاردك الرقم ده.. ١١:١١.. تليغات الناس اللي بتجرب الظاهرة دي.. ظاهرة ملاحقة الرقم ده لذهنهم.. صعب تكون مجرد صدفة..

ده سؤال.. أنت كخالد جربتتها؟

كانت تلك المرة الأولى التي يتطرق فيها حسن لتجربتي الخاصة.. ويحمل اسمي مجردًا من اللقب للحوار..

أصبحت أشعر في الفترة الأخيرة أن اسمي قد صار غريبًا عني.. (دكتور) قد صار أليقًا أكثر لانتباهي!!

هل كان حسن الذي تعرى بالأمس داخليًا.. يحاول أن يعوض تعريه بمحاولة لاواعية بتعرية نسبية لمعالجه! عبر اقتحام مساحته الشخصية وتجريده من قناع اللقب الاجتماعي!

تجاهلت الأمر وأنا أجيبه:

- احنا بنسميها التزامنية.. ومقدرش أقول إن التزامنية دي موافقة تمامًا لقانون الاحتمالات أو فكرة الصدفة المنتقاة..

وأكيد مش حتلاقي طبيب نفسي غير وعنده حرج شديد من تناول أي ظاهرة  
ليها علاقة بالروحانية الجديدة أو عوالم غيبية..  
ولولا يونج كانت القطيعة بين الطب النفسي والغيب حتكون حاسمة  
وصارمة.. فأكيد مش حت...  
- انت ليه بتهرب!!

هكذا قاطعني حسن ضاحكًا.. مستطرّدًا:  
- يحصل إيه يعني لو الدكتور اتحرر شوية من الباطو والجوانتي المعقم  
واتورط مع العيان أكثر؟

يحصل إيه يعني.. لو صاحبت عيان.. أو حتى حيت حالة من حالاتك!!..  
قانون النقابة حيسخطك تمرجي يعني!

اكتفيت بابتسامه صامته أمام أكثر موضوعات الممارسة الطبية جدًّا  
وحرّجًا.. لم يكن ليخرجني منها سوى الصمت لوهلة ثم استعادة التحكم  
المتأرجح بين ذكرين مفعمين بهوس السيادة الكلامية وأنا أجييه:  
- زي ما انت بتهرب بالعلاقات كده!

زالت ابتسامته سريعًا وهو يهمهم:

- أها.. هجمة جيدة يا مولانا..

لم أعره كثير اهتمام وأنا أو اصل:

- أحيانًا بناخد العلاقات درع قدام وجع مواجهة نفسنا..

وأحيانًا مجرد إلهاء عن ملفات انفعالية متعلقة وغير مكتملة..

ويمكن مسكنات عن خوف الوحدة أو فوبيا الهجر!

كنت أرى العلاقات بالنسبة لحسن.. ضمانات طمأنة طفل لايزال حبس  
الحاجة للقبول!

تكررت هممته وهو يتابعني باهتمام.. مع توتر خافت بدا على حركة عصبية  
بقدميه الملتقين على المقعد الفارغ.. سحبهما ثم أعادهما..

التوتر يبدأ بالأقدام.. هي حقيقة تطويرية نغفل عنها.. إشارة مخية بيولوجية  
عند القلق يشترك فيها البشر.. تجهيزًا للكائن الإنساني نحو الهرب والفرار!

يبدو أن الانسحاب هو خيارنا الأول المتوارث منذ عصور البدائية البشرية..  
مهما تغيرت أقنعتة وتنوعت طرزه المتخفية..

كان يبدو لدى حسن حينها في لملمة عفوية لقدميه.. وبشكل أكثر جذرية في  
تلاهيته عن أوجاعه بتعددية علاقاته!

وهذا ما كنت أشرحه له في صدامية خشنة..

يبدأ الموضوع بطلب صادق للآخر.. طنًا أن الخلاص يكمن فيه..

كم نحمل من الحماقة حين نظن أن حل مشكلاتنا يكمن في علاقة مثالية  
نتخيلها تبدو بالأفق.. تمنحنا هذا القبول والاستيعاب والتعاطف والمشاركة

الوجدانية..

وتبقى الحقيقة الوجودية أن بكل علاقة هناك فجوة لا يمكن عبورها.. وأن الوحدة تكمن هناك في قعر العلاقات.  
وحدثنا الوجودية الأصيلة.. فالألم والموت والقلق كلها أشياء تختبرها وحدك.. ويبقى التعاطف نوع دعم لا اقتسام لها!  
لذا واهم من يظن أن العلاقات ستحرره من الوحدة الأصيلة المشتركة فينا.. وواهم من تلاهى عن الوحدة بعلاقة اندفاعية غير محسوبة.. ستعري وحدته أكثر.. وتتركه أكثر شبقًا للمزيد.. وأكثر إدمانًا للتسكين والتلاهى!!  
- تقدر تحكيلي أكثر عن موضوع الرجالة اللي كانوا يبجوا البيت وانت صغير؟

هكذا استغللت حديثنا المنفتح والمتشعب لأتطرق لتلك النقطة شديدة الحساسية والوعورة في تركيبته النفسية لأجده يظهر امتعاضًا واضحًا وهو يتلبس دفاعية أولية متوقعة من أي رجل يرى بادرة اتهام ولو حقيقية لعرض أهله وهو يقول:

- الموضوع ميش زي ما انت فاهم، هي مكانتش ست لعوب يعني!  
ثم صمت قليلًا وهو يميل بجذعه للأمام محاولًا استشفاف تصوري عنها وهو يتابع بعد مشروع تنهيدة بترها توتره:  
- أنا بصراحة مش قادر افهمها تمامًا، يعني هل ده كان جزء من مرضها ولا نتيجة طبيعية لوحدثها في شبابها!  
ثم لم يلبث أن انهارت دفاعيته وانهمر منه الحكى.

روى لي مشهد الطفل الذي يدخل يومًا على أمه في وجود نجار أربعيني مغبر الثياب قبيح الطلة ضخم الشارب ذي وجه أقرب للسواد ممتلئ بالحفر تظهر منه شفاة غليظة تحيظها شعيرات ذقن عشوائية الانتشار، يلتصق بوالدته ويداه المنغمستان بالشبق الهمجي تمتد تحت ملابسها البيتية تداعب أذناها.

يلملم الرجل يديه في تعجل غبي حين يشاهد وجه الطفل يقتحم الغرفة على حين التفاتة.

فيتظاهران معًا بمتابعة عمله في الشباك المكسور وكأن الأمر يفلح في تبديد مشهد قد انصب كحفرة غير قابلة للمحو في ذاكرة الفتى صلصالية التكوين!

ويتذكر يد محصل النور وهي تمتد لتتحسس ذقنها المنقور بطابع الحسن ورقبته التي تتابع تمنعها على مشارف قبلة.

بيت الطفل ليلتها يحمد الله على رقي محصل الكهرباء مقارنة بالنجار الذي زارهم من أربعة أشهر حين انكسار شباك وافتضاح شهوة!

لا يستطيع الطفل ليلتها أن يصرف عن ذهنه خيالات تصور له (محصل النور) وهو يتزوج أمه ويتحول للأب المستعار لحسن وأخيه، خاطرات كانت كفيلة بمنحه التعرف الطفولي الأول على الأرق!

ويتذكر فخذها الذي كان يعلو فخد صديق والده وهما يجلسان متجاورين على كنبه الصالون العتيق في بيتهم، تلك الكنبه التي لا يتذكر أنه جلس عليها يومًا بعد هذه المشاهدة وكأنها صارت بقعة محرمة على مساسه.

(حسين) صديق والده الذي تكررت زيارته اطمئنانًا ظاهرًا على أحوالهم والفتي دائم التلصص على همسهما الحميم.

حسين كان الرجل الأول الذي يقتله الطفل في أحد أحلامه!

ناهيك عن مدرس المدرسة الوسيم ذي العينين الزرقاوين الذي صمم أن يزورهم ليمنح حسن درسًا خصوصيًا مجانيًا لوجه الله ووجه نجوى!

تلك المشاهد التي ربما لم تحو اطلاقًا على ممارسة جنسية ولكنها كانت كافية ليشيد الطفل داخله من الخيالات ما يجعله يمقت خروجها المتكرر.

وربما ما يكفي لتتهز ثقته بالأنوثة وتمنحه غضبًا كافيًا للبحث عن تفسير أو تبرير أو ربما لانتقام متقنع بقناع الدونجوانية!

فإن تكون مجبرًا على حب أمك بالفطرة وفي ذات الوقت مملوءًا بطاقة غضب أقرب للكراهية لهو صراع لن يؤدي إلا إلى بعثرة كافة دواخلك حتى تفتقد ذاتًا صالحة لأن تنتسب إليها!

لا يبدو الأمر جيدًا على نفس طفل بالمدرسة، فلم يكن حسن رغم تفوقه الدراسي بالفتي اللين المطواع إنما كان يحمل غضبًا كونيًا قد تم تفريره في طاقة حركية وتوجه مشاغب قد ادخله دومًا في المتاعب.

ولكن حين تحدث له أية إشكالية تستوجب وجود ولي أمره فتحضر نجوى الرشيقه طويلة القامة ذات الشعر زائف الصفرة والبلوزة مفتوحة الصدر والتنورة القصيرة والحذاء عالي الكعبين تلفت الأنظار فيصير كل شيء سهلًا أمام الحسنة عيصة الحظ!

وكل شيء يبدو أسهل حين يدرك أحدهم أنها مطلقة، فتتعالى داخل الرجال بدءًا من الكاتب صاحب الأعمال الورقية وحتى الناظر غريزة مطاردة الفريسة الشهية الجريحة السهلة!

وكل شيء كان يبدو مقيتًا حين كان يسمع حسن في صغره تندرات العابرين بجمال أمه ومغازلاتهم دون خشية من نقمة زوج أو غضب أب، فالكل يدري أن تلك المشتهاة المارة بتجمعاتهم هي امرأة وحيدة!

كان الدم يحترق بعروقه الساخنة كبرعم ذكرى يمنعه عجزه الطفولي من خوض معركة يومية مع الجالسين على المقهى المجاور.

المقهى الذي كان يحرقه بمن فيه كل ليلة في أحلامه!

يتذكر يوم ضرب (حمادة) ابن الجيران وأخو حبيبة طفولته (لمياء) بالحجر في عينه حتى كاد يفقده بصره لأنه لمح له بإشارة سباب لأمه (حبيبة الكل).

حجر كان سببًا في مزيد من الإقصاء الجمعي لنجوى وأولادها، ونهاية حاسمة لأقصوة شغفه الطفولي بلمياء أخت حمادة التي منعها أبواها من محادثته

من يومها!

حمادة الذي كان حسن يمزق جسده ويخطف أخته كل ليلة في أحد أحلامه!  
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنت غير مؤهل أصلاً للحب.. لأن الحب محتاج ذاتًا متماسكة واضحة  
المعالم تقدر تاخذ وتدي..  
علاقاتك مجرد أشباح وأشباه.. عشان لسه محلتش مشكلاتك المؤجلة مع  
نفسك..

لحد ما تقدر تنشئ علاقة حقيقية وصحية مع نفسك.. لحد ما تفهمها  
وتصالحها وتتسق معها.. حتفضل متخبط وغير قادر على إنشاء علاقة مع  
كيان ثاني..

انت بتتداری منك فيهم!!!

- أنا فعلاً دايمًا حاسس بأني غير مؤهل للحب.. عندي تنميل في الإحساس..  
وتعدديتي دي محاولة لتركيز الإحساس!!

على غير عادته كان حسن يتحدث بجدية وإستغراق.. يتأمل الفراغ ولا يلتفت  
إلى.. يتلعثم.. ويشرد.. يصمت.. ويلضم أفكاره.. ثم يتابع وهو يشرح لي  
كيف أنه يرى نفسه مصابًا بنوع من (التبلد الانتقائي) عبر برود يصيبه داخل  
العلاقة لا يبده سوى علاقة أخرى:

- العمر الافتراضي لأي حدوة حب يبقى كام أسبوع.. وبعدها بتبقى شفايفها  
ليها نفس الأثر بتاع شراب قطيفة..

تنميل كامل!.. طبعًا يستجيب فسيولوجيا.. استجابة ذكورية يعني.. لكن  
كإحساس يبقى متخدر.. ولا كإني بتفرج علينا من بره..  
البنيت بتفكرني متحكم.. وإني عشان كده مش بتورط ومش بعدي الخط  
الأحمر اللي يدبسنني..

لكن الحقيقة إني برميلها جسمي واقعد اتفرج على نفسي كعازف بيانو خبير  
مش أكثر!

تأملته باهتمام مشفق وأنا أوافق قائلاً في آية طيبة:

- أثر كوليدج!!

بالمناسبة الذكورة دايمًا مرتبطة بالموضوع ده.. التعود والتكيف على أنثى  
معينة بتخلينا ننحس ونزهدها..

وبمجرد دخول أنثى جديدة يعود الذكر لعنفوانه وحرارته.. مش بس مع  
الأنثى الجديدة.. إنما مع الاتنين.. وهكذا!!

اسمه أثر كوليدج.. دي ظاهرة مدروسة ومفصلة علميًا.. في علم الحيوان!  
هنا يلقيني حسن بضحكته الفجائية:

- من ناحية حيوان فهو حيوان فعلاً!!

أشاركه ضحكته وأنا أشير إليه إشارة خفية ليتابع:

- بس أنا مش قصدي كده على فكرة..

أنا اقصد إني بيبقى عندي فعلاً غياب كامل للإحساس مش للاستجابة الجنسية زي ما انت بتحكي..

إنما بالنسبة لي الحزن بيبقى مجرد ضغطة.. والبوسة بتبقى مجرد تبادل مقزز للعاب.. وكلام الحب بيبقى دوشة سخيفة على وداني وطعمه مر على لساني..

لحد ما تظهر فريسة جديدة وتحد جديد.. ساعتها كل شيء يرجع يلون ثاني!! وترجع حلقة دوارة تلف من جديد..

فتقدر تقول إني مدمن تجديد.. مش ستات!!

وعاد لشروود لحظي وهو يتأمل بقعة ما في الحائط المقابل وكأن وجهًا ما تراءى له.. وهو يستطرد بصوت خفيض:

- الحلقة دي بقي.. ما انطبقتش تمامًا مع سارة!

كل شيء كان له طعم مختلف.. ومسار مش محسوب!!.. وخارج عن سيطرتي وتخطيطي!

لقيتني متلخبط.. ومتخبط.. ومش عارف آخذ قرار..

وكان فيه قوة غيبية بتحكم ارتباطي بيها..

- اشمعنى سارة؟

- ما هو ده اللي كان ملخبطني.. إني مكنتش لاقى الأسباب..

دائمًا كنت بضحك ع البنات وانا بقولهم (الحب اللي يعتمد على أسباب متعوليش عليه).

بس كانت مجرد كلمات فارغة بالنسبة لي وبتلمس معاهم..

مع سارة بقي فعلاً مكنتش لاقى أسباب للخبطة دي..

معرفش ليه مكنتش بشوفها مجرد بنت بتمثل تحدي حشيلها النقاب ف يوم.. وادوق اللي مخيباه عن عين الشمس..

كنت بحاول افرمل الأيام عشان ميحيش يوم تحقيق رهاني مع نفسي..

الغريب إني كان نفسي أحبها بنضافة!!

واحد مش بي فهم غير في لقا الأجسام.. عاوز يدوق لقا الأرواح رغم يقينه إنه مش مؤهل لده ولا قابل ليه!

- طب ورقية؟!.. ليه كنت موازي علاقتك بيها؟

التفت إلى دون أن تلتقي عيوننا.. كان يحدق بنصف شروود بقعة ما في البرواز السريالي المعلق ورائي.. وكان وجهها كان يلاحق نظره.. ثم همهم قائلاً:

- اممم.. تقدر تقول كان تحدي مركب.. يمكن اتنين صحاب دي كانت جديدة عليًا..

ويمكن عشان أخلِّي رقية معيار مقارنة.. أتأكد منه إن اللي كنت حاسه تجاه سارة كان فعلاً مميز!!

قالها ثم لملم قدميه واعتدل في جلسته وظهرت عليه أمارات توتر وهو يفرك يديها متممًا:

- أنا حاسس إن الخنقة اللي جوايا..والكعبلة اللي بمر بيها واللي جابتني هنا كلها بشؤم اللي عملته في سارة!

وعاد إلى استلقائه ثانية وهو يكمل لي قصتهما...  
لأتأكد أن أقوباء الظاهر وأصحاب القشرة الفولاذية.. المصابين بفوبيا الحميمة. يفقدهم الحب اترانهم.. ويمنحهم تخبطاً يجعلهم يؤذون القريبين كغريق يتشنج.. ويشوهون حياة أكثر من أحبوا من حيث أرادوا النجاة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يستغرق الأمر طويلًا حتى استطاع الفتى أن يغرر عدوى هواه في قلبها.. ربما حاول أن يؤخر انهماهما المحتوم نحوه..

كان يدري أنها لا محالة تلقى رأسها قريبًا على صدره.. وقد كان قبلها يدخل للفتاة عبر أحلام احتضانات نقية.. لا تلبث أن تنتهي به يعزف إحدى مقطوعاته بأنامله على جسدها العاري!!

ربما أراد أن يحذر سارة من مصيرها المنتظر والمعتاد.. ولكن كيف يحذرها وقد كان التحذير في ذاته إحدى ألعيبه القديمة!!

التحذير.. إحدى أقوى طرائقه القديمة للإيقاع بالفتيات.. الاعتراف بخطاياها يسقط حصونها بسلاسة أكبر.. فكل الحمق أن تظهر نقيًا أمام فتاة ما..

فالأثنى مبرمجة على المغفرة.. ومجبولة على حماقة أعظم تتمثل في ظنها ( أنه لم يكن يخبرني ألعيبه وجرائمه ليكررها معي).

الحمقاوات هن من يعتقدن أن الحكى نوع من التوبة!!.. لا يدرين أن نصف الرجال يروون خطاياهم ككسب ماكر للثقة.. والنصف الآخر يروونها كاستعلاء ذكوري بمكاسب قديمة وأحيانًا كنوستالجيا لانتصارات الأمس..!!  
الذكر عصي على التوبة... سيبقى يرى في كل أنثى تقابله لقاء جنسي محتمل!

فتلك الألعيب التي كان يعلنها حسن ويرونها للفتيات ووجهه يحمل انكسارات التائب... هي ما كانت تمهد له الطريق كل مرة!.. ليكررها بكل أرحية..

وحدها المرأة تلدغ من ذات جحر الحمق الذكوري عشرات المرات.. سهوًا!  
إذا أردت أن تحصل على قبلة ما.. فامنح الفتاة تحذيرًا وكأنك الممزق داخليًا بين دعوات نفسك الشيطانية الهائمة عشقا لتقبيلها.. وبين تمنع داخلي من شهامة ونقاء جديدين عليك يكبلان انجرافك نحو شفيتها..

(احذريني ولا تمكينني من نفسك)!!

تلك الطريقة الأنجح دومًا.. لتتمكن!

فكيف إذن يمنح سارة تحذيرًا.. والتحذير كان أحد فخاخه..

وكيف يروي لها حقيقته.. وروايته تلك كانت أقوى حبائل إسقاط دفاعاتهن..  
لم يستغرق الأمر طويلاً أمام وجهه الدافئ وابتسامته الرائقة.. وصوته  
الهادئ وكلامه المتسلل للمواطن الملعومة بالنفوس.. لتخبره أنها أيضاً  
أحبته..

ومن هناك كان الأمر سهلاً..  
وجدته يخرج لي (نوت) كتبها على هاتفه. وكأنه كان يروي لنفسه تأريخا ذاتيا  
للقائه الحميم الأول بسارة.  
فقد كان يخشى أن يفقده التمثيل المعتاد ذاكرة لقائهما.. فكتبه يوم  
الحدث..

ولعله كان يشعر أن ذلك ما كان سيبقى له منها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



جوهر الغريزة هو أننا نتبعها بمنأى كامل عن أي منطق!!  
(تشارلز داروين)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



كان صراعًا قاسيًا يملؤه.. وهو ينتظرها مستلقياً على كرسي الأسنان البارد  
بعيادته.. يحدق في مصباحه القريب..  
لا ينبغي لهذا أن يكون.. ولا يمكنه أيضاً الحيلولة دونه..  
تمتلئ روحه بها شغفًا.. وصارت خلاياه تدمنها بشدة...  
كان يدري أنها مسألة وقت.. ثم لا تلبث أن تنهار دفاعاته... كما انهارت  
دفاعاتها هي من قبل..  
لم تكن دفاعاته سوى محاولة عابثة دفاعًا عنها هي.. منه..  
هي المرة الأولى التي يتجرد فيها من مركزه حول ذاته ولذاته.. ويتآمر مع  
آخر على نفسه..

لم يكن هناك مفر من رغبته القهرية بإقناعها بلقاء خاص في عيادته!!  
يسيطر عليه (فلاش باك) لشريط قصتهما القصيرة التي تذكرها في  
اضطجاعه على كرسيه، وذكرها على كنبتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتذكر....

لقاءهما العادي الأول.. وكيف أرهقه إقناعها بمقابلته في (كافيه) ملحق  
بمكتبة الإسكندرية، تلك الأماكن المتقنعة بالرسومية والاستقامة!  
بعدها تأكد أنه قد غرس بذور هواه في روحها الجائعة عبر محادثات هاتفية  
متكررة وكثير من الدردشة الاجتماعية العامة..  
استغل بعضًا من براعته اللسانية لتفتيت جدارها الديني..  
- {لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا} فسّريلي الآية دي!!  
- ساعات بخاف منك والله.. حسن بطل تلاعب.. الآية دي يعني (لا تعطوهن  
وعدًا سرّيًا) بالزواج في فترة العدة.  
- طب بالراحة.. بالعربي كده (لا تعطوهن وعدًا) يعني ماتوعدوهن اسمها  
(لا تعدوهن) إنما دي (لا تواعدوهن) يعني المصدر مواعدة.. مش وعد..  
فأنا عايز حقي الشرعي ف إني أقولك القول المعروف من خلال رخصة  
المواعدة دي..

كان يحادثها كميرمج نفوس محترف.. يهمس في مواطن.. ويضغط على  
حروفه بمواطن أخرى.. يضحك حينًا.. ويسمعها صوت أنفاسه المتنهدة حينًا..  
يتعامل مع نصوصها الدينية باحترافية صائغ يلويها حينًا ويمررها على ظاهرها  
حينًا ويجمعها ويرتقها حينًا.. لتناسب تدبيره!

ربما يكون الهاتف إحدى لعنات التواصل الحالي العقيم.. ولكنه أيضًا أحد ممرات بدايات الهوى.. فإن تمنحك امرأة مسافرًا حميمًا قريبًا كمكبر صوتي جوار أذنها فقد فتحت لك بوابتها الأهم، فأذن المرأة هي بوابتها الخلفية للقلب ودهليزها السري المفضي مباشرة إلى قاع روحها.

وحسن كان يتقن مداعبة أذن امرأة.  
المرأة كائن غير مكترث بالمحتوى.. قدر اكتراتها بإطار تقديمه..  
من أجل النساء تم اكتشاف الأغلفة والبراويز وورق الهدايا قبل التفنن في محتوى الهدايا..

المرأة مهووسة بالتزيين والتجميل و(التزويق).. لذا لا يهم ما ستقول قدر ما يهم كيف ستقوله.. وبأي لمعة مبهجة ستغلفه!  
ووافقت.. واتفقا على هذه المواعدة مزعومة الرخصة الشرعية!  
وتركها تنتظره في الكافيه المتفق عليه وهو يراقبها من الضفة الأخرى للكورنيش تجلس بطاولة متطرفة تنتظره بتوتر..  
لم يباغتها بتنزله.. منحها اتصالًا هاتفيًا..

- بصي كده ع الجنب الثاني م البحر..  
خُيِّل إليه وكأنها تبتسم من تحت النقاب.. يمكنه أن يتوقع ذات الخدين الممتلئين وربما النغازتين اللتين اقترب وفاؤه بعهد تقبيلهما..!  
كيف به يتورط داخليًا في اشتهااء فتاة لم ير لها وجهًا من قبل!  
- ها.. آجي؟!

سارة دي فرصتك الأخيرة.. لو دخلت الكافيه كده تبقى اتورطتي فيًا بقية عمرك.. مفيش رجعة ومفيش خلاص مني!!  
فكري تاني..

كان يقولها بمزاح عايب.. قابلته هي بضحكة متوترة ممتلئة بالخجل..  
- ادخل بقى عشان أنا مش ناقصة قلق. دي أول مرة في حياتي أقابل حد بره بيتنا!

- طب بصي.. اللي بيعدموه بيسألوه نفسك ف إيه قبل ما تموت..  
ها.. إنتي بقى نفسك ف إيه قبل ما تحبيني!  
عشان حياتك حتقف هنا.. دي اللحظة اللي الدنيا عمرها ما حترجع زي ما كانت..

هل كان يمازحها في غرور ذكوري كطبول استقبال لتنزله الواثق على أكوانها.. أم تراه بحق كان يحذرها تحذيره الأخير؟ تجتهد رغبة حبيسة داخله في أن يصرخ فيها (اهربي يا صغيرة.. إنك لا تدركين ما أنت مقبلة عليه!!).  
وقد صدقها الفتى.. فمنذ تلك اللحظة التي جلست أمامه بنقابها الزهري المنسجم مع لمعة عينيها الخضراوين فأغرقتة.. لم تعد دنياها أبدًا كما كانت!  
وهكذا دنياه هو!!

ويتذكر يوم حضرا معًا إحدى الحفلات الغنائية ل(سعاد ماسي)، وسارة لم تفهم شيئًا من لغتها الجزائرية. ولكن أدهشتها الموسيقى إلى حد التمايل الراقص على كرسيها.

وقد شاهد حسن في عينيها لمعة الحرية للمرة الأولى. يتنسم لبراءتها وهي تحاول أن تملأ فراغات الأغنية فتزج الكلمات غير المفهومة وترقعها بكلمات مصنوعة من ذهنها المرح لتتمكن من مشاركته الغناء.

يتذكر كيف تلاشت يومها جموع الحاضرين وتلاشت الفرقة وذابت الموسيقى وكأن الوجود بأسره قد اختصر في وجهها الضاحك بعث.. ويتذكر..

كيف كانت اللمسات العفوية فيما بعد بلقاءاتهما تشعله وتشعلها.. وكيف كان يتعمد أن يرسل رسائله المحايدة الماكرة عبر لمس يديها بقلم يحمله فيما يبدو كتلقائية عابرة أثناء انفعاله بالحديث..

كيف كان ينظر لوجهها المتواري وراء النقاب.. وكأن نقابها ليس موجودًا.. يمنحها إشعاعًا بأنه يراها.. يعريها.. بأنها لم تعد تتواري وراء وشاح اختبائها..

ويتذكر كيف أقنعها بخبث أن ترسل له صورة بحجابها دون النقاب ليراه.. - المشكلة أن ذهني أوتوماتيكيًا بيكوّن صورة عنك..

فهل يرضيكي يعني أحب واحدة ثانية غيرك جوه دماغي.. وأجي يوم ما نتجوز أحس بالغبرة قدام ملامحك!!

يوم أن شرح لها أن الذهن سيسعى لسد الفجوات الذهنية في عشقه لامرأة لا يعرف لها وجهًا. محاولة ذهنية للترقيع بالتأكيد ستباين صورتها الحقيقية مما سيمنحه غربة وربما نفورًا يوم يشاهد وجهها متأخرًا كثيرًا عن ميقات مشاعره!

شرحه كان مخيفًا بما يكفي ليغلب اعتقادها الديني فترسل له صورتها الأولى!

وهكذا هي المرأة حين تتحرر كفراشة لا يمكنك كبت أجنحتها. حين تشعر بدايات الانهزام تحرق كافة حصونها طوعًا.. فكانت صورتها الأولى أكثر خبلاً من توقعاته.. فلم تكن سافرة الوجه فحسب!

أرسلت له صورة تبدو فيها كفتيات بلاد الشرق البارد كبولندية أو روسية، كانت بشعرها الأسود القصير متدرج الهبوط حتى كتفيها ووجهها مفرط البياض وعينيها اللامعتين في المرأة تمسك هاتفها بيديها التي تخلت عن القفازين، تحمل خاتمًا فضيًا ينعكس مع لمعته طلاء الأظافر الوردي الذي زادها إغواءً!

وكما توقع كان خداهما ممثلين يتكوران في ضحكتها حول نغازتين كأعمق ما رأى يومًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويتذكر كيف أخذ بضعة أيام ينزع حساسيتها للمسمة الأولى..  
- عاوز أوريكي تجربة لطيفة.. قربي إيديكي من إيدي..بس من غير لمسمة..  
وحسي بالمسافة بينهم بيحصل فيها إيه!  
مفيش لمسمة متخافيش.. بس حسي التيار الغريب اللي بيحصل بينهم..  
كان حسن مبرمجًا إيجابيًا موهوبًا بحق.. فقد استطاع أن يشعل الفتاة  
ويمنحها يقينًا بتيار دافئ نوراني يسري في المسافة بين يديهما غير  
المتلامستين!!

- ما بالك بقى لو حاشا لله يعني لمستك!  
ثم يتركها يومًا وراء يوم دون أن يتعجل مساسهما الأول..  
وهل كانت تحتاج سوى بضعة مرات من تذوق التيار الغرائبي بينهما حتى تترك  
ليديها خيار السقوط في كفه..  
لتسقط بعدها كافة تحرجاتها.. وتخوفاتها..  
يسقط وازع الدين وتبقى نوازع الهوى!!  
كم من الحماقة أن تحكم على أخلاقيات فتاة أمام رجل بسطوة حسن  
وذكائه..  
فعلى وجه الحقيقة ليس التعفف سوى مسمى امرأة لم تختبر يومًا رجلًا  
يتقن اقتحامها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم يعود للواقع.. مضطجًا على كرسي الأسنان يحصي الدقائق في انتظار  
وصولها.  
حيث قد قرر أن يكف عن مقاومة اشتهاه المضني لها وأن يقنعها بالاختلاء..  
ثلاثة أشهر كانت وقتًا فائضًا كثيرًا عن معدلاته القديمة..  
بقى هو يتأرجح ظاهرًا في طلبه الاختلاء.. يعلن ثم يعود في طلبه، ليمنحها  
شعورًا بالصراع الدائر داخله ليكسب ثقة هواجسها أكثر!  
واتفقا على موعد بعيدًا عن عيون المتطفلين.. بعيدًا عن الخوف والترقب  
والاختباء.. بعيدًا عن لمسات مستخفية بالسيارة وشروع مبتور في قبلات لم  
يقدر لها أن تكتمل إلى جوار عيون العابرين..  
ووافقت بعد مدافعة صورية.. لم تكن تدافعه حقًا.. فقد كانت مصابة بذات  
الإدمان.. فقط كانت تدافع ضميرها الصارخ واعتيادها القديم على التحصن  
بتقاليد الاندماج عشقًا..  
هي المرأة دومًا.. تنحر كل شيء طوعًا على مذابح الهوى!  
يخبرنا الواقع أن الحب وحده دين المرأة وقبلة قلبها..

لا تكثرث المرأة كثيرًا بمباحث الوجود ولا تشغلها أسئلة الخلق والخليقة..  
كما تشغلها المساحات الدافئة لصدر رجل على المقاس من أوجاعها..  
من قال يومًا إن (الرفيق قبل الطريق).. لا بد أنها كانت امرأة!!  
وطوال اليوم الموعود كانت تملؤه رجفة داخلية غريبة عليه!  
هل ستكون سارة بين يديه حقا؟!  
كان خائفًا على غير عاداته..

شعور الخوف كان محببًا لحسن هذه المرة.. يمنحه يقينًا أنه لم يزل يحمل  
قلبًا ما في بقعة مظلمة من سواده الداخلي!!  
لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتخفى فيها عن عيون الناس مع فتاة ما  
بذات الموضوع..

لقد كف عن العد والإحصاء منذ أزمنة بعيدة..  
ولكنها هي (سارة) هذه المرة.. طفلة المرتعشة التي كشفت في نفسه  
بقاعًا لم يعهدها من الإشفاق والتخوف..  
وكما اتفقا.. أن يترك لها الباب شبه مغلق..  
دخلت.. حرقياً تنتفض...

يقترّب نفسها الزافر بشدة من حالة تشنجات.. وكأنه يسمع صوت ريقها  
اللاهث.. ونبضها المتسارع..  
تبحث عن يديه بشغف..

تجربة مقيبة هي تجربة الترقب والتحسس والتسلل للمرة الأولى.. بعيدًا عن  
جواره..

تراوده فور رؤيته لجسدها المرتجف كلمات جاهين:

ورا كل شباك ألف عين مفتوحين

وانتي ماشيين يا غرامي الحزين

لو التصقنا نموت بضربة حجر

ولو افترقنا نموت متحسرين!!!

هو كان يعلم أنها تبحث فور دخولها عن الاختباء بصدرة...وقد تمحور مفهوم  
الطمأنينة لديها حينها في الارتماء بحضنه والاستراحة بين ذراعيه..  
ولكنه لم يفعل مباشرة..

فقد خشى أن يفسد اشتهاؤه لها وخوفها الجارف سكن الاحتضان الأول..

لم يكن يريد أن يكون حضنهما الأول.. مجرد هروب من قلق اعتراضها..

لذا وقف أمامها قليلاً.. يتأملها..

ربتات خفيفة.. وضغطة حانية بيديه على استحياء على كتفها المنتفض..

فقط حين تلك المرحلة من القرب يتلاشى الكون...

إننا كائنات مجبولة على السعي وراء هذه اللحظة من وقوف الرجل يتأمل  
امراته من استعلاء طوله.. ونظرها المتسلق لعينيه في ارتباك.. وبينهما

وسط حار من الاشتهاء وتيار ساخن من الانجذاب، وكثير من السكون الذي لا يشاء أن يسكن!

لحظة مشتركة بين كل شعوب الكون لا تحتاج إلى كثير لغة ولا تختلف طقوسها كثيرًا... ولا يستطيع بشري أن ينكر كونها أعنف لحظات وجوده عمقًا وسطوة!!

مد يديه بهدوء يجبره عليه هيبة اللحظة الصامتة ليرفع نقابها.. لتسطع أنوار شمس وجهها الوضاء بعينه..

ربما هي المرة الأولى التي تمنحه الحياة فرصة تأمل هادئ لوجهها الحي.. يتحسس ثلاث (حسنات) بنية صغيرة تميزه.. ترقد إحداهن على بقعة قريبة من التقاء عيناها اليسرى بأنفها.. وتقع واحدة على طرف شفيتها الورديتين الممتلئتين مائلتين نحو ذقن رخامي لامع بحبات عرق نابثة بفعل تعاون التوتر والنقاب..

وثالثة بين حاجبيها لم تكتف بكونها مجرد صبغة سوداء بل ترتفع قليلاً عن سطح جلدها الناعم..

هكذا تفترق الوجوه عن الصور.. والنساء عن عرائس الشمع.. تلك الأخطاء العابرة من نحت الطبيعة تزين وجوههن.. الشامات و(الحسنات) وربما البثرات.. وأحيانًا الندوب.. تؤكد لنا أننا كائنات غير كاملة قلبًا وقالبًا!!

وحسن كان شديد الاحتفاء بالتفاصيل المميزة لفتياته.. شديد التركيز على إرسال رسائل القبول غير المشروط.. بل الاحتفال بالنقائص ومحبة العيوب.. ربما لهذا كن يجدن صعوبة بالغة في الفكك من أسر رجل يمنحهن شعورًا دائمًا أنهن أجمل بعينه من جميع المرايا!!

نستغرب! تستطيع المرأة أن تميز بين نقاء المرايا.. وعند المرأة لا مرآتين متشابهتان!!!

وأهم مرايا المرأة عين حبيبها.. يتساءل يومًا ما سر هذا الجناس اللفظي بين (المرأة) و(المرأة)؟! كان لوجهها إشراق يملؤه صحوة ممزوجة بسكرة.. وقد وقف أمامها مشتعلًا كبركان جامد كجبل في أن واحد. وكأنه غاب عن الكون.. ليستيقظ على طبقة أعلى من الوعي.. الوعي بجمالها..

لوجهها أثر غياب وحضور.. فناء وبقاء.. معًا!!  
شهود كامل لحضرتها.. وغياب وفوات لكل ما سواها..  
ظلا واقفين قليلًا جوار الباب.. يتحسس وجهها ويداعبها ببعض التمتع حول حزن..

وكانه يمنح نفسه إحرامًا كافيًا... أو وضوءًا داخليًا.. استعدادًا للحظة قد طال منه ومنها شوق ارتقابها..

إن التعجل في الملامسة لدى المرأة خطيئة غير قابلة للمغفرة، يجعلها  
تشعر بالاختزال كأداة للتلذذ!  
يقول متعمدًا ملامسة هواء حروفه لوجهها:

- بتعرفي تحضني..؟!  
- هو الحضن كمان محتاج خبرة يا أبو على؟ طول عمري شايفاه إني أرمي  
نفسي وحضنك يلقف!

كان قد فتح لها ذراعيه يهدوء ماكر.. وهو يعدل وضعيتها كطفلة تتكئ على  
أبيها بخطواتها الأولى قائلاً وهو يعدل وضعية يديها اللتين لم يمارسا التلاقي  
قبله:

- لا كده غلط يا غشيمة.. إيدك عكس دماغك..  
- بالظبط كده..  
واحتضنها..

ترك لروحه عنان السقوط.. أغلق قليلاً سبحات ذهنه النشط وانغمس في  
احتضان قوي.. ضمها بعمق أقرب للعنف!!!  
أحاطها بذراعيه وقربها بقوة وكأنه يحاول مزجها بلحمه..

الاحتضان.. هوس النساء الأكبر.. قد تدفع المرأة نصف عمرها بأريحية..  
فقط لتقضي نصف عمرها الآخر في احتضان جيد!  
كان يعترضها بشدة.. يستمع تنهيدها الحار.. وهي تشعر وكأنهما يمتزجان..  
ينعجن جسدها اللين بجسده المتصلب.. والدفء المركز المنبعث من  
جسديهما يخترق دواخلها..

يتساءل حسن داخليًا.. لماذا كان أول التقاء جبريل بالنبي محمد عبر  
احتضان!!

لماذا كان أول التقاء السماء بالأرض عبر ضمة قوية..!!  
هل كان جبريل متعطشًا لالتقاء السماوي بالأرضي منذ تعطله بعد عهد  
عيسى المسيح!!!

(فأخذني فغطني (احتضنني) حتى بلغ مني الجهد).  
العجيب أن هذا هو ما كان يدور بذهن حسن أثناء احتضانها..!!  
يضحك من فكرته الخرقاء.. من هذا التطفل الذهني العاثر لرؤية دينية على  
ضفاف لقاء مستخفي!

ألصقها بالحائط في هدوء ماكر.. وبحركة بطيئة دون فك الاحتضان..  
هو يدرك أنهما الآن على أعتاب قبة..!!

كان يخشى دومًا هذه المرحلة بالذات من العلاقات..  
فحول قبة انهارت كافة علاقاته السابقة..

كان وهو يداعبها يمنح نفسه تأجيلًا خشية التقبيل..!  
مداعبات مراوغة بأنفاسه حول وجهها..  
همسات بأذنها المستترّة تحت طرحتها..

تيار عنيف دون التلامس يؤجج جوعها..  
لم يكن الفتى ليمنح شيئاً دون طقوس إحرام.. وتأجيج..  
بعض قبلات خافتة دافئة لوجهها تتوقف حول شفاهها إغواءً وإجلالاً..  
تحاول هي التقاط شفاهه..  
يراوغ.. يتمنع.. تقترب هي.. فيبتعد هو في مكر..  
- نفسك ف حاجة قبل ما أبوسك؟!  
تضحك أمام عبارته فيلمس ضحكتها بوجهه.. فوحده التلاصق يمنح الحروف  
ملمسًا وطعومًا!!  
ثم قبلة..!!  
كيف يمكنك أن تصف قبلة!.. تقف اللغة عاجزة عن وصف الطعوم والروائح  
والإحساس..  
فكيف بامتزاج الجميع..  
وحدها القبلة تجرد اللغة من طاقتها وتعري عجزها المركب..  
وكانت قبلات.. ممارسة مغايرة للعشق... بعد آخر للهوى يفتح هناك حول  
قبلة!  
وكل شغف الكون يتحوصل بشفتين يلقمهما..  
للغرابية أنه شعر بها.. على غير العادة..  
كيف كان يأنف التقبيل ويتجنبه قديمًا بمهارة..!  
يبدو أن القبلة وحدها شفرة التفريق بين الزائف العابر وبين الحقيقي  
المميز!!  
هي المرة الأولى التي تمنى لو ابتلع لسان امرأة..  
لعابها الشهوي.. لسانها الناعم.. وشفاه مذهلة المذاق..  
ورفع طرحتها.. بهدوء وتلامس متلاعب هادئ كان يسحب (دبايسها).  
وبدا شعرها المتعرق..  
شعور غريب بالألفة احتله حول رأسها الجميل العاري..  
ديجافو.. وكأنه رآها من قبل.. لا بل ملأه ظن غرائبي بأنه في أزمنة ما قد  
اعتاد الاستيقاظ جوار هذا الرأس المحبب..  
- شكلي مبهدلة طبعًا.. أنا عارفة!  
قالتها بتحرج واضح..  
يخبرني حسن يومًا أن أقسى لحظات المرأة وأشدّها احتياجًا للدعم حينما  
تتعري!!  
فلا شيء أخوف عند فتاة ما، مما يدور في ذهن من تحب حينما يراها من  
الداخل..  
وهنا يكرر حسن احتضانًا جديدًا.. ويصرف عن ذهنها هواجسها بتساؤل ماكر:  
- تعرفي الفرق بين الحضن والضمّة والمعانقة؟!  
ويمنحها درسًا آخر في الهوى.

ودخلا غرفة مجاورة.. غرفة مغلقة ومخصصة للقاءاته.. ذات ذوق مغير وانتقاعات لونية مختلفة عن نظام العيادة..  
 أصابت الفتاة رجفة هيبة وهو تدلف لعرينه الغرائبي..  
 كانت الحوائط مزينة بصور ورسومات يغلب عليها اللون الأسود.. وكنبة جلدية سوداء تواجه شاشة تلفاز عملاقة...  
 وسرير فردي يتوسط المسافة بينهما.. بشكل يثير الريبة..  
 لولا مفرش وثير يجمع الأحمر والأسود.. لكنت تبدو كغرفة عمليات بسريرها المتوسط..  
 لم يكن هذا ما أثار الرجفة فيها قدر ما أثارها حبال جلدية لامعة تتدلي من حلقتين بسقف الغرفة..  
 - هو أنت عايش هنا؟!!!!  
 قالتها بعفوية مصطنعة توارى بها توترها.. وأكملت لما لم تجد من حسن سوى ابتسامة ماكرة صامتة:  
 - هو إيه الحبل ده؟  
 تحولت ابتسامة حسن إلى ضحكة قصيرة وهو ينظر إليها بلؤم وكأنه يسبر غور هواجسها:  
 - ما تشغليش بالك.. تقدري تقولي بلعب (عقلة) بس مختلفة حبتين..  
 كان خوف يتبرعم داخلها يدفعها نحو الفرار.. منه أو إليه!  
 الحب قرين الخوف.. ألا ترى الرجفة في يديك أمام الحبيب.. وهذا القلق المصاحب للشوق.. وضربات قلبك المتسارعة بكليهما...  
 تركها حسن تتأمل غرفته المصبوغة بالأسود اللامع تحت ضوءها المبهر.. وهو يلتفت إلى مشغل أسطوانات مجاور للتلفاز.. ويشغل إحدى الأسطوانات التي انتقاها..  
 ومشى بطيئاً نحو الفراش وصوت الموسيقى يعلو بخلفية توترها..  
 - أنا بحضرك المزيك دي بقالي شهر..  
 - هو انت من شهر كنت عارف اني حاجي هنا..  
 - ويمكن أكثر..  
 كانت موسيقى بادية القدم وصوت زكي ناصيف ينادي.. (فحبيك منتظر يا عاشقة الورد).. منحتها استرخاء.. ورسمت على وجهها بسمه وهي تتأمل حسن يردد معه بوجهه المازح:  
 - حيران أينتظر؟!.. والقلب به ضجر..  
 إن عدت إلى القلق.. هائمة في الأفق..  
 فهيامك لن يجدي!!.. يا عاشقة الورد..  
 ثم أشار إليها بإصبعه بإغواء ذكوري مصطنع أن تقترب.. وهو لم يزل يردد بأدائه المسرحي المازح:

- يا ملهمة النجوى.. لن تنفك الشكوى..

فحبيبك لا يهوى.. إلا ورد الخد..

لتجد نفسها تسير نحوه مسرعة على غير توقعها.. تجلس جواره على الفراش الناعم.. يخيل إليها أنها لا تسمع سوى ضجيج نبضها المتسارع..

- تعالي ف حُضني..

هل قالها أولًا.. أم أن ذراعه التي امتدت لتحيطها وتضم رأسها وكتفها إلى صدره بهدوء صارم..

بقيا هكذا للحظات.. يستمعان إلى نبرة (ناصيف) الدافئة.. ويتذوقان نوع دفء مغايرًا..

وكان انتهاء الأغنية كان (الكيو) المنتظر لتحول المشهد.. لترفع عينيها إليه..

- تعرف انك عندك أسود لون عينين شوفتها ف حياتي!..

كان حسن كاذبًا كعادته.. ولم تكن هي لتعرف أن هذه الموسيقى هي موسيقى اللقاء الأول بفتياته.. مجهزة كبرمجة تأهيلية كل منها يسلم إلى مرحلة ما من اللقاء..

ولم تكن تعلم أنه منذ شهر واحد لا أكثر كانت (رقية) صديقتها يلتصق جسدها العاري بجسده المتعرق على ذات الفراش!!

وموسيقى رقيقة متسارعة بالخلفية... وصوت (تيريز سليمان) يطل برقته العابثة ليحفزها أكثر..

(لما إيدينا تلتقي.. تمي ع تمها شو بقى.. غير إن الدنيا تبطئ حركتها والدوران!..!..)

كل الطبيعة يتحنني لما بجسمها تنحني..).

كان صامتًا يتأملها وكأنه يمنحها رسالة مضمرة بأن تتحرر..

وكانها تلقفت رسالته فمدت يديها تتحسس وجهه..

للمسة عيونها الخاصة.. فمن لم يتأمل ملامح معشوقه بأنامله.. لم يعرفه!

تنساب يداها نحو ذقنه.. وتهوى نحو حنجرته البارزة..

- كل دي حنجرة يا حسن!

- أصلي أكلت تفاحة الخطيئة كلها؟!

ولمعت عيناه ببريق غريب وهو يمسك يدها بقوة ويلحق بها يدها الأخرى.. لتصير مكبله يديها بأحد كفيه..

ثم يقترب بهدوء.. ليتشممها...

يستنشق هذا الرحيق الصادر من مسامها..

لا تدري هي ما الذي كان يشعلها أكثر.. أهو نفسه الساخن الملاصق لجدها أم يداها المكبلتان تحتويهما معًا يد وحيدة..

لم تفكر كثيرًا.. فقد كان الاشتها المتبادل أعنف..

كانت لحظة فقدت تماسكها أمام مداعباته بنفسه واستلقت على ظهرها.. وهو يميل فوقها في تتبع حميم..

هل توقف الزمن لحظتها..  
هل كانت تحلم..  
هل مر يوم بأكثر أحلامها طيشًا أن تكون يومًا بين يدي رجل كحسن.. وخارج إطار الزواج (الشرعي)!!  
وعاد ليقبلها.. قبلات متصاعدة الحرارة.. بدأت بتلامسات خافتة لشفاهها.. ثم ما لبثت أن جرفت لهما اللذة نحو ما يقرب من التهام شبق متبادل..  
وقبلات لرقبتها.. ومدخل صدرها الأملس الأبيض الدافئ..  
ودارت لحظات طوال بين مداعبات ومشاعبات..  
اغواءات وضحكات..  
والموسيقى تتابع بالخلفية.. موسيقى تانجو على صوت منير (في عينيكي غربة وغرابة).  
ويقوم حسن في حركة مسرحية راقصة..  
يلمس نفسه.. ويلمسها بإغواء.. يقترب وبيتعد.. مع إشارات وتمايلات ذكورية مأكرة نحو جسدها.. وكأنه يراقص طيقًا أنثويًا غير مرئي..  
يمزح بإغوائها... وهو يحل أزرار قميصه الأرجواني..  
هي تضحك بملء فمها.. توارى بضحكاتها اشتعالها بتلقائيتها وعبثه وجرأته..  
وتبرق عيناها بمزيج من الاستحياء والاشتهاء...  
هي تود أن تترك لنفسها العنان.. تشتهي أن تراقصه.. وتتمايل معه.. ولكنها تتردد وهو يجذبها.. نحو مشاركته تراقص مبعثر عابث فائض الفكاهة..  
ويعودان للفراش ثانية.. أنهكهما التراقص وامتزجت الضحكات بالتلاهدت..  
ينامان متقابلين صامتين..  
يغمرهما شعور متواز بدفء الوطن.. والسكن..  
لتعود قبلات وتتبعات خافتة منه.. يتلاصق جسدهما..  
ثم انقباضات شغوفة.. فعلتها على استحياء خافت..  
والتقطها هو..  
ينجرفان نحو شعور عجيب باللذة اعتاده هو.. وتتذوقه هي لمرتها الأولى..  
يتوقف دومًا قبيل دخولها حافة ذروة الانتشاء..  
هو يدري أنها لو أدركت اليوم قمة انتشائها به ربما ستكرهه..  
فتلك اللذة المستخفية تحوي الإحباط متخفيًا بين طيات انتهائها..  
فليحافظ على تماسكه كالعادة..  
يتركها مشتعلة ويتوقف بعبثه المتلاعب..  
وشعرت هي أنها تحتاجه.. وتحتاجه..  
تلمس صدرها في نداء عاجل ليديه التي ما رأت نوع دعوة حتى انهمرت نحوه.  
صدر فتاة بكر هو كان عرش اللذة لديه..  
وحده صدر المرأة يعيد الرجل رضيعًا يلبي دين الطفولة المؤجلة منه..

كم عجيب أن تتعلق مناطق جسد المرأة الحميمة باحتضان الحياة..  
وتتعلق مناطق الرجل الحميمة بمحض الإخراج..  
لذا فلا عجب أن تكون ممارسة الجنس للمرأة متعلقة بالحب والديمومة..  
وممارسته للرجل متعلقة بمحض التصريف!!  
ومن هنا تنبت كافة إشكالاتنا..  
الجنس لدى المرأة فعل حياة.. ولدى الرجل محض تصريف!  
ينجرفان أكثر...  
تأوه..

ووحده التأوه كان مرتكز لذته هو!!!  
ملامح وجهها المتأوه بتلذذ.. والتي بات لا يستطيع إزاحتها عن باطن أجفانه..  
ملامح من الوجع الممزوج بالاغواء... عينها تنقلبان وشفاهها منفرجة نصف  
انفراجة.. ويظهر على وجهها استجداءات متناقضة (كفى).. (والمزيد)  
معًا..!!

يقوم من فوقها بهدوء.. ويسحبها... متربحًا وهي فوقه... كجلسة لوتس  
بوذية.. أو كراهب من رهبان اليوجا يمارس تأملاته..  
ثم يمنحها هيمنة ظاهرية باستلقاءه..  
بيديه يحركها فوقه بشغف..  
عرق.. وغرق..

قبلات متعددة لكل شيء.. يمارسان كل ما ينتمي لشبح علاقة دون أن  
ينخرط بحماقة في سرقة عذريتها!  
وفجأة انتفضت من فوقه كالملدوغة..  
أذان المغرب...!!  
تبتعد إجلالاً.. ترتجف.. وكأنها أفاقت لتوها من سكرة كاملة..

تحاول استيعاب ما يحدث..  
لم يكن يمكنها في خضم التلذذ أن تغفل صراخ الأذان من المسجد  
المجاور...!!!  
يجلس أمامها.. وهي ترتعش..

يضع رأسها على كتفه.. ورأسه يتكئ على كتفها..  
تقوم بهرولة لتطفئ النور.. وكأنها أدركت لتوها أنها قد صارت شبه عارية..  
ترتدي عباؤها وخمارها بتعجل صامت..  
وقد بدأت الأعراض الجانبية للذة المختلصة بالظهور..

- حضنك

- لا بلاش

- بلاش ليه

- مش عارفة يا حسن بقى.. كل ده غلط..! أنا مش عارفة ايه اللي بعمله

ينبت خيطا دمع رقيقان فوق عينيها..  
يحتضنها عنوة..  
وهي تبكي وترتجف..  
يملؤها شعور خانق بالسرقة.. والاختلاس..  
يحاول الفتى اللبق من تهدئتها قليلاً بتأكيدات الهوى..  
- أنا حنزل الأول.. وحستناك جنب الصيدلية.. متأخرش..  
ولملمت أوجاعها وحيرتها الممتزجة بغمرة الاشتهاء.. ورحلت..  
كان كلاهما يملؤه نقائص شعورية مفزعة..  
هي ممتلئة بتجاذبات التلذذ والاشتهاء.. تصارعها جلد ضميرها الصارخ..  
وهو يمتلئ بنشوة الظفر والنصر... يصارعه جلدات ضمير نبت هناك لأول  
مرة على صدرها يخبره أنه قد حان وقت التوقف عن الإيذاء...  
على ذات الفراش تعرفت الصديقتان بتذوقه ولكنه لم يكن يشعر بشعور  
جيد كما اعتاد بعد غزواته وغنائمه!  
لم يزل هذا الشعور الدخيل بالفراغ الجواني ينهشه.. وقد اتسع الثقب  
الأسود داخله ليلتهمه أكثر.  
هناك قرر حسن لأول مرة أن يطلب المساعدة!!!  
وهنا كانت نهاية (النوت) وروايته المتوجعة عنها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



هؤلاء الذين يرقصون.. قد يحسبهم مجانيين أولئك الذين لا يمكنهم سماع  
الموسيقى!  
(جورج كارلين)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



التقطها كما اتفقا من أمام الصيدلية القريبة من عيادته ليتحاشيا العيون المتطلعة لنزولهما معًا من عيادته في غير مواقيت عمله.  
للمرة الأولى لم يستطع حسن أن يكسر الصمت الناشئ مع فتاة ما بعد التسليم من صلوات اللذة، ولم يتمكن في تبعثر غير مسبوق أن يطمئن فتاة قد خلع لتوه عنها أوشحة تعففها.  
لقاء الأجساد دائمًا ما يكون المشهد الأول في الفصل الأخير من قصص العلاقات.

حين تشيع الحواس تتمرّد مطالبة الدماغ بالرحيل فلم يعد في المستقبل المرتقب مزيد استكشاف.. تلك طبيعة ذكورية.  
تناقضها طبيعة أنثوية معاكسة، فحين تشيع حواس الأنثى فإنها ترفع مطالباتها للدماغ بمحاولة الحصول على مدخل مستمر مستقر لهذا الإشباع، فتبحث عن الديمومة.

صبيحة الفراش تسكن المرأة.. ويتعجل الرجل بالرحيل!  
ما هذا الجنس الموجع المطابق بين (الرَّجُل) و(الرَّجُل) كعضو الارتحال والفرار.

أم ترى سمي الرجل رجلًا لأنه يتركز شغفًا على ما بين رجليه ابتداءً ثم الفرار انتهاءً!

وهل صدق من سمي عضو الرجل (ذكرًا) تمامًا كاسمه لأننا بحماقة الكون كله نختصر كينونتنا في مذاكيرنا!

كالعادة يزهد الرجل في كل امرأة وجدها متاحة مباحة على مائدته، وحينها يبدأ العد التنازلي للتأفف والتعلل والرحيل.

ربما كان الأمر سيطول قليلًا لولا أن سارة بحاجتها الأنثوية للديمومة صبيحة التلامس قد بدأت تحدث حسن في مستقبل علاقتهما!

تلامس الأجساد يذيب كل ما كان قبله من التحجج والتحرج والتروي والاستحياء ويجلب ما كان مستترًا من هواجس النفوس.

- بقيت ليل نهار تزن عليّ إننا لازم نتخطب.. وإنها فجأة ما بقتش راضية عن طبيعة علاقتنا، وإن دي الخطوة الطبيعية... والهري الدائم بتاع البنات..

جايلي عريس وماما بتزن عليا.. وهكذا..

هل اكتشف حسن يوم تعرت أمامه سارة أن منطلق مغامرته كان إزالة نقابها والغوص الاستكشافي لمستورها، ولما حدث فلم يعد في الأمر ما يغويه بالمزيد.

أم أن خوف سارة من فقدته قد دفعها نحو استعجال رجل كان معجوبًا بالخوف الذكوري اللصيق من الارتباط والالتزام وفقدان الحرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنا مخطفتهاش.. ومضربتش حد على إيدته..  
قالها حسن وهو يحاول الفرار من نظرة لوم غاضب ارتسمت على وجهي  
رغمًا عني.

- بيجولي برجليهم.. ويخشوا المصيدة بكامل إرادتهم..  
ومع الوقت كل واحدة هي اللي بتخط إيديها ف الحبل..!!  
- يعني إنت مكنتش بتحس أي وخزة لضميرك.. وإنت بتجرد البنت من  
تربيتها والحصون اللي عاش بعضهم سنين بينوها!  
- يا دكترة بلاش دراما.. مفيش واحدة محصنة ولا واحدة كاملة الطهر  
والقداسة.. هما زينا تمام.. لكن شكل رغبتهم مختلف ومتزوء ومتزبن  
ومتداري بفعل كبت المجتمع.

أنا بس بديهم فرصة ينطلقوا بإرادتهم..  
إيه اللي حيزعني على حاجة صاحبها نفسها مفكرتش تزعل عليها وهي  
بتديهاني!

كان على وجهه حبات من العرق اللامع.. وكأن روايته للقاءه مع سارة  
ومشاعره المتناقضة حينها قد فتحت إحدى مقابر ذاكرته المدفونة.. تلك  
التي التقطت أنا رائحتها المعتقة وقررت اقتحامها وأنا أسأله بهجوم واضح:  
- إنت بتنتقم منها.. فيهم!!

ورغم غموض الجملة.. فقد كان كلانا يعلم على من تعود..  
وقد امتقع وجهه.. وبدا عليه سواد عجيب وانتفخت عروق رقبتة وهو يزفر  
أمام عمق مفاجأة عبارتي وأنا أستمر في التضييق على روحه وأتابع:  
- ببسطك اللي دايرين ف فلكك دول.. كرموز ليها هي.. إسقاطات على  
والدتك..

بتحاول تخليهم راكعين شغفًا بيك.. وهما بيعلنوا إنك الذكر الأوحد والمسيطر  
والاستثنائي..  
وكانك بتخفف وجع افتقادك لشعور القبول في عينين أمك اللي  
ماشفتهاوش..

هناك ف (المصيدة).. ومع تأوهاتهم وتنازلهم عن حصونهم بتحس إنك  
كفاية!! وإنك كامل..!! وإنك شخص يستحق الحب!  
بس للأسف ده مش بيكفيك لوحده..!  
بتحتاج تحصل على انتقامك.. بإنك تؤذي والدتك فيهم!  
تعبيرك السادي عن الحب والشهوة مش أكثر من قناع لانتقامك منها بإيذاء  
للنوع كله..!

حتى نظرتك للبنات إنهم كلهم مش عفيفات.. وكلهم بينخرطوا في الممارسات دي بإرادتهم مش أكثر من تعميم لإسقاط صورة والدتك على كل بني جنسها من الستات..

قد كان حسن يرتجف حرفياً.. يمتزج على وجهه ملامح مختلطة من الخوف والغضب..

كان يشعر بأنه يتعري.. ويجلد..

كان يشعر أن هذا الرجل الفولاذي الذي صنعه ليخفي صغيره المرتجف.. كان يتهاوى.. وقد دخل أحدهم وكشف موضع اختباء الصغير!

ولم أكن أنوي أن أخفف هجومي.. فلم يكن ليصلح لحسن تبعاً لتصوري إلا علاج صادم وتعرية قاسية وكشف مشترك لدوافعه.. واستدعاء جاد لكافة هواجسه ومحركاته لنطاق وعيه!

- إنت عارف ليه حاسس ليك أكثر من ذات يا حسن.. ومش عارف إنت مين.. وليه حاسس بالقهر واندفاعية الإدمان تجاه الممارسات دي.. وليه خرج الموضوع عن سيطرتك؟

لأنك ببساطة مخدتش فرصة كافية لنمو ذات متصالحة مع دوافعها.. وواعية باللي يحركها..

جواك واحد بيدور على احتضان وشعور بالقبول.. طفل نفسه يحس انه كافي!

وجواك موجوع بيدور على عدالة وقصاص!

وجواك خايف من الوحدة والهجر.. زي خوف رضيع اتسحب فجأة من صدر أمه ومصدر أمانه!

وجواك حاسس إنك مجرم ومذنب ولازم تتعاقب ومتستحقش الحب! إنت مش معذور ف حاجة عملتها ولا مبرر ليك أي من جرايمك.. انت عامل زي التور المدبوح اللي هرب من جزاره.. ففضل يرفس وينطح في الناس اللي حظها التعس إنها كانت ف طريقه ساعتها!

غضبك اتوجه ناحية الأشخاص الغلط!

وللأسف جزء أكبر منه.. أتوجه ناحية نفسك!

انت ببساطة عامل شبه اللي سحب رشاش ودور القتل العابث في المحيطين بعشوائية.. واحتفظ بأخر رصاصة لنفسه!

توقفت ارتجافات حسن فجأة.. وظهر ارتياح غريب على وجهه وهو يقوم مرددًا:

- آخر رصاصة.. لنفسه!

ويخرج دون توديعاته الغرائبية المعتادة.. وأنا أسمع في طريقه للخارج لم يزل يردد كالمغيب:

- آخر رصاصة.. لنفسه!

لا أنكر أن هاجس انتحار حسن قد مر على ذهني لوهلة وأنا أتذكر ترديده  
الآكي لكلماتي (آخر رصاصة لنفسه).

صرفه عني فهمي لأبعاد شخصية رجل مثله.. لا يفعلها إلا إذا جردته الدنيا  
عن مصادر إشباعه النرجسي بكاملها..  
مثل حسن لا ينتحر شابًا!!..

ربما قد يحوله اليأس والبؤس والغضب إلى مزيد من رفض الكون.. يترجم  
في مزيد من العبثية والانتقامية المستهتره... لا الموت..

لذا كنت أراهن على طريقتي في استفزازه بجلستنا السابقة.. أنها لم تكن  
لتأتي بأثر عكسي..

ولكني كنت أترقب منه اتصالاً.. أو اقتحامًا جديدًا.. شيئًا ما ينبئني بما حدث  
داخله..

ثلاثة أسابيع مرت دون أدنى صدى من الفتى..

وهو اجسي تتصاعد.. وسيناريوهات متعددة كانت تتناسل بذهني.. لم يطفئها  
سوى تحديد (سماح) موعد جلسة جديدة ل(رقية)... التي تمنيت لو كانت  
تعلم شيئًا ما عن نتيجة مقامرتي..

لم تجلس على طرف الأريكة بتحفظها المعتاد، إنما اتكأت على مكتبي بكلتا  
راحتيها في تحدٍّ يشبه روح حسن الغائب:

- نفسي أفهم إيه اللي بيجرى؟

يعني في النهاية سارة تطلع النقاب.. وحسن يسبب دقنه وشكله حيثحول  
سلفي!!

كان تلك أولى إطلاقات رقية الكلامية على جلستنا!!

ولا أدري أيهما أثارني أكثر.. حديثها عن حسن الذي اعتزل العالم واكتفى  
بمواعيد عمله وصار منخرطًا بشدة في أداء الشعائر الدينية.. تاركًا لشعيرات  
وجهه حرية الانطلاق كمشروع لحية!

ثلاثة أسابيع كان يقضيها حسن في منعرل تطهيري يدعوه (التوبة).

تلك نتيجة لم تكن في حساباتي.. والأهم أنني لم أصدقها.. رأيتها محض ردة  
فعل انفعالية متطرفة من شخصية أرهقها التعري الفج الذي منحه إياه.

- هي سارة خلعت النقاب!

- ده من زمان.. هو حسن مش حاكيلك!!

- لأ.. معرفش حاجة عن الموضوع ده.. أنا حتى معرفش سبب حقيقي  
لانفصالهم.. حسن كعوايده مش بيحكى بشكل مترتب..

- مفيش سبب محدد.. هو حسن كده بعد شوية لما العلاقة مبيقاش فيها  
جديد.. وكل تحدياتها اتكسرت.. تحسها بتبور معاه.. يشوف أي سبب يتلكك  
عليه ويمشي!

وبعدين يقعد متذبذب شوية بين الفراق والرجوع.. لحد ما يخرج خروج  
مينفعش بعده حتى مجرد سلام!

بس سارة بقى ما اكتفاش معاها بخروج عنيف وبس..  
بس أنا مش فاهم ليه حسن يا رقية؟ إيه اللي يخليكي فاضلة معاه رغم معرفتك بكل نزواته؟

هكذا سألت رقية التي رفعت حاجبيها وعادت بظهرها للوراء وهي تقول في إحدى إجاباتها الملتفة:

- في يوم كنت ماسكة موبايل أبويا المهندس المحترم الوقور اللي عنده 06 سنة ومش بيغوت فرض في الجامع، واللي الناس بتحسدنا على تربيته وسمعته واحترامه.

وأنا بقلب خدنتي إيدي لتاريخ التصفح (الهستوري) بتاعه، وأكد إنك متوقع لقيت إيه!!

لا مش مجرد إباحيات، ده نوع خاص جدًّا من الإباحية... اكتشفت إن أبويا بيقتضي ساعات بيتفرج على نوع واحد بس من الأفلام، نوع مقزز ومريض! ساعتها حسيت قد إيه هو راجل مزيف ومخوخ من جوه، وحسيت إنني عربانة وضهري اللي بتسند عليه مسوس!

أما حسن فهو أنصف من غيره عشان متصالح مع نفسه.. مش متلون ولا ازدواجي ولا مدّعي، مش بيوعدني بظاهر نضيف والباطن عنف! حسن هو الحاجة الوحيدة الصادقة اللي عشتها حتى لو مؤلمة.. وأنا كنت جعانة للصدق!

كانت إجابة رقية مغايرة تمامًا لتحليلاتي المسبقة، فقد كنت أفسر الأمر باستهواء مثلها للرمز الذكوري المسيطر المتسيد تعويصًا عن جفاف الأب. كنت أراها فتاة مهووسة بالثناء متسولة للقبول لتقوي صورتها عن نفسها، فأبواها دائمي التطلب والنقد يدفعانها نحو مثالية غير ممكنة التحقق، يجعلانها دائميًا داخل سباق مضني لا يتوقف لإرضائهما!!  
يحققان أحلامهما المؤجلة فيها ويستخدمان أنفسهما محلًّا لمشاريعهما وتخطيطهما وأمالهما!

يكملان في حياتها ما غاب من إمكانيات حياتهما! وحده حسن جعلها تشعر أنها على ما يرام، وأنه لا حاجة بها لمزيد من العدو والبحث!

لم يكن لديها خيار في السقوط في فلك حسن الذي يلبي الرغبتين معًا: رغبة المدح الغزلي ورغبة العقاب الأبوي!  
وجدت تساؤلًا آخر يتطفل على ذهني:

- طب ليه فضلتني معاه رغم حبه المميز لسارة؟  
- والله ما عارفة.. مع حسن الواحدة بتفكر كثير جدًّا في البدايات.. بتحاول تفهمه.. تطمئه.. أو توصله.. بتحاول تفسر سلوكه الغريب.. أو تناقضاته اللي ملهاش حد..

مع الوقت إما بتيأس وتسلم لبعده..

أو بتأيأس إنها تفهمه.. فبتعيش وخلص..  
أنا عملت كده.. مقدرتش أبعد عنه.. عمري ما دقت اللي دقته معاه..  
وعمري ما قابلت راجل بكعبلته دي.. مقدرتش أسيبه.. فوافقت على أي  
صيغة تخليه موجود وخلص..  
- وعلاقتك بسارة؟!

- برده كانت معقولة لفترة طويلة لحد ما حسن اتجن جناه الأكبر ووصلنا  
كلنا للي احنا فيه دلوقتي!!  
وأخذت رقية تروي لي الفصل الأخير من تشنجات الفتى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرجل خير من يتعلل بالظروف.. والمرأة خير من يصدق تبريراته!  
وحسن كان مقهورًا ومبرمجًا على الانفصال والرحيل أكثر من برمجته على  
الارتباط والتعدد.. ما يلبث أن يشعر بقرب أحدهم حد إمكانية فقدانه  
السيطرة وانجرافه.. حتى يجتهد في إقصائه!!  
ربما هو لم يكن معدوم الإحساس.. قدر ما كان يخاف بصيص الإحساس  
فيهرب..!

كان مصابًا بفوبيا فائقة من الحميمية وتحسس مفرط من الإحساس نفسه!  
ومع سارة كان شعور خانق بفقدان السيطرة يتزايد داخله.. ويقينه باختلاف  
إدراكه لها وكونها فتاة استثنائية بالنسبة لمثله.. لم يكن ليقربه أكثر قدر ما  
كان يمنحه اضطرابًا وقلقًا أعظم ويستدعي كافة مخاوفه.. وشروبه..  
وحماقاته..

بقيت الفتاة تصارع محاولاته للتملص والرحيل طويلًا.. ثم ما لبثت أن  
استسلمت:

- إني مش بتسيب يا حسن.. عشان اللي بينفصل ده لازم يكون ارتبط  
أصلاً.. وإنت عمرك ما بتسيب حد يقرب منك!.. بتفضل راسم للي بتحبه  
دايرة ما يخطيهاش!!

....

الفراق تمامًا كالتعافي من الإدمان.. له أعراض انسحاب مؤلمة بما يكفي  
لتضطرب وظائفنا الحيوية.. والحياتية!!  
وبقدر جرعات الإدمان يكون عنف أعراض انسحابه وقسوة التعافي.. وبقدر  
عمق الهوى يكون الوجد..!

سارة التي انكفات على نفسها تجمع إلى فجيرة رحيل أبيها وجع غياب  
حسن.. وتلضم به شعور يملؤها بأنها لم تعد تعرف نفسها!!  
لم تعد تدري هل هي تلك المنتقبة الملتزمة المتعففة المختبئة.. أم تلك  
المتمردة حارة الانفعال التي أطلق حسن قيودها ومنحها تحررًا كفراشة  
حديثه التحليق..

وربما كانت تلك الحيرة هي ما منحها اضطرابها الأعظم.. لثلاثة أشهر متتالية..

شيء ما بعينها قد انطفأ..

ولمعة جديدة من المكر بدأت تشتعل..

كل من يراها أصبح يدرك أنها لم تعد ذات الفتاة!!

يعزو الجميع تغيرها لفقدانها المفاجئ لأبيها.. ولا يعلم أحد قصة الدخيل الذي تطفل على قلبها.. تاركًا لها عذرية الجسد وقد سرق منها عذرية روحها..! كل امرأة بالكون تدري أن عذريتها وبكارتها ليست في غشاء عضوي رقيق يختم مداخلها..

إنما تفقد المرأة عذريتها حينما تمنح بذرة روحها الدفينة طوعًا لرجل ما.. فتدخله مدنها.. وتطلعه على دهاليز أسرارها.. ومواطن أوجاعها.. وتجعله يمد يده يتحسس شروخها الداخلية..

فإن رحل.. تبقى هي دومًا تشعر بالعري.. والبرد.. والانتهاك!!

أما الرجل الأحمق فيظن أنه بحفاظه على غشاء بوابتها الجسدية.. قد حفظها فلم يضرها.. ولم يؤذها..!

وحسن قد أدرك لأول مرة.. أنه كان هذا الأحمق المؤذي.. الذي انتهك كثيرًا من الحصون.. وأسقط كثيرًا من المدن..

كان يدرك بعد انفصاله عن سارة أنه مدان كمجرم حرب طليق!

ربما لم يعان مثلها.. ولم يتوجع.. ولم تصبه أعراض انسحاب..

كيف وقد كان طباخ السم الذي يعاني من انعدام إمكانية تذوقه.. فحيث لا قرب ولا إدمان.. لا يترتب كثير وجع! ولكنه أيضًا لم يعد ذات الشخص..

كان يرى في سارة.. توبته!!.. ومباراة اعتزاله الأخيرة..

سجوره القسري لصوم طويل قرر أن يخوضه..

فجأة لم يعد شيء يثيره.. ولا تحد جديد يستفزه..

شيء ما بروح الفتى قد انطفأ أيضًا..

رقية أدركت أن حسن لم يتجاوز سارة مطلقًا.. وأنها لم تكن أبدًا محض عابرة!!

وأنها صنعت شيئًا ما بقلب الفتى.. ربما لم يفهمه أحد.. ولا هو أيضًا!!

فالقلب عاصمتنا الأهم.. قريتنا الحصينة.. ويبقى حبيب وحيد يحفر اسمه

على بوابتها مفتتحًا.. وكل من عداه هم محض خلفاء يقتبسون من وجهه..

يبقى كل قلب قرية.. ويبقى لكل قرية ملك وحيد..

(إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها).

وهكذا فعل كل منهما بالآخر.. فلم يعد قلب أيهما كما كان قبل ملاقة شريكه!

أصاب الفتى مرض الشرود الدائم الذي لم يكن يخرج عنه سوى ذكر رقية  
لبعض أخبار سارة!!

- جايلها عريس صالونات كالعادة.. بس المرة دي وافقت إنها تقعد معاه..  
ربما كانت رقية تتمنى لو منحه هذا تجاوزًا كافيًا.. فمجرد بقاء حبيب قديم  
متاحًا قد يرهق القلب والعقل بوساوس المعاودة!

- كملني.. مين ده.. واشمعني ده اللي وافقت تقابله يعني؟  
- فات أربع شهور يا حسن.. مفيش حاجة حتفضل على حالها..  
- اخلصي.. وبطلني هري.. احكي..

- دكتور 32 سنة وبيشتغل في الكويت.. ونازل يتجوز.. شافت صورته وكلمته  
مرة ف التليفون.. وحيثقابلوا بره عشان يتعرفوا كمان كام يوم..  
- جاي يشتري جوازة يعني..

لم يكن يصعب على رقية ملاحظة تأفف حسن ومحاولته إخفاء الغضب  
المتصاعد داخله..  
فقد يبقى الرجل يشعر بالإهانة لمجرد تعرض ذكر آخر لما اعتبره يومًا من  
نطاق مملكته..

ويبقى سمت الذكور التناطح والتصارع والتقاتل على غنيمة مؤنثة.. وإن  
زهدها يومًا كلاهما!  
التقط حسن نفسًا عميقًا وهو يرسم ابتسامة باهتة على وجهه.. وهو يتابع:  
- إمتى وفين؟!

- ليه يا حسن.. واحنا ما لنا!!.. المفروض الموضوع ده اتقفل خلاص.. شوف  
حالك وسيبها تشوف حالها..  
- متخافيش يابنتي.. أنا تبت عن الجنان خلاص.. أنا حاخذك ونروح نتفرج ع  
المشهد من بعيد..

أنا من زمان نفسي اتفرج على سوق النخاسة ده..  
الباشا اللي جاي يشتري جارية في السريع.. يعرضوا عليه بنات المعارف  
والعائلات يدور يتفرج عليهم لحد ما واحدة م البضاعة تعجبه..  
- أنا أول مرة أشوفك محموق كده!!

تجاهلها حسن وهو يتابع:  
- بعدين إنتي حتبقي معايا.. حنتفرج عليهم وبس!!

كانت رقية ترتجف داخليًا وتلعن اندفاعها بإبلاغه.. وغيرتها التي جعلتها  
تسكب النبا للفتى محاولة صرف ذهنه عن صديقتها فأشعلت ما كاد أن  
ينطفئ داخله..

- إخلصي يا رقية.. إمتى وفين؟!  
- وأمام صرامة حسن البادية في نبرته الخشنة لم تجد رقية إلا أن تخبره..  
- الأربعاء الجاي بعد المغرب في ستار باكس سان ستيفانو!  
ارتسمت على وجه حسن أكثر ابتساماته زرغًا للخوف وهو يقول:

- والباشا ما اشتراش الكافيه..  
حتقابليني يومها هناك من الساعة خمسة..  
قد لاحظ حسن وجه رقية الممتقع ترقبًا.. فقال مهدئًا:  
- متخافيش يابنتي..مش حنقى مكشوفين ليهم.. المكان كبير.. حنقعد نتفرج  
من بعيد وخلص.. والله ما حخليها تشوفنا واحنا قاعدين..  
ده وعد.. أنا بحلف بالله..  
كلمة راجل.. مش حخليها تشوفنا قاعدين..  
ربما في هذه اللحظة وعند كلمة حسن شعرت رقية بأن الأمر ربما لم يكن  
يتعدى حركة عابثة من حسن لمراقبة حبيبته القديمة وهي تساق نحو رجل  
غيره.. لا أكثر..  
ربما نوع آخر من التعذيب الذاتي..  
طمأنها وعده.. وأضافت طلبه لقائمة الأمور التي لا سبيل أمامها لفهم تعقده  
الداخلي فيها!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاء الموعد.. ورقية محتلة بهواجسها لم يخفها عنها سوى وعود حسن  
المتتالية بمحض المراقبة البعيدة للقاء..  
كانت رقية تنتظر حسن بطاولة متطرفة.. و(عمرو) يدلف للساحة المفتوحة  
يرافق (سارة) ووالدها..  
شاب طويل أبيض بلحية بنية خفيفة ونظارة طبية لامعة ببريق أزرق خافت  
يلائم عينين بنيتين هادئتين، ووجه رائق.. متناغم مع لمعة شعر بني كثيف  
بارز مصفف بعناية..  
يمكنك أن تتوقع دون أن تعرفه أنك أمام طبيب شاب (ابن ناس) أو مبرمج  
كمبيوتر خجول يعمل بشركة عالمية..  
كان الفتى وسيماً بحق.. وجهه الهادئ المريح وخطواته الهادئة المواكبة  
لخطوات المرأتين بجواره..  
يخيل إليك أنه يموت فجلاً داخله وهو يسير بمحاذاتهما دون أن ينظر إليهما..  
ينتقي طاولة هادئة ويسحب مقاعدها ليجلساً أولاً.. ثم يقرب مقعداً آخر من  
مقعد سارة ويجلس جوارها.. وقد أوليا ظهريهما لطاولة رقية التي منحتها  
طلة الفتى الهادئة رعدة أكبر..  
وما هي سوى دقائق حتى ظهر حسن يخطو على السلالم المعدودة يتأمل  
الساحة المفتوحة ويدرك موقع طاولة (سارة) فيتعمد ألا يمر من أمامها في  
طريقه لرقية..  
تبتسم (رقية) رغماً عنها وهي تقابل صورة (عمرو) المثالية الأنيقة.. بصورة  
(حسن) الأسمر الطويل يرتدي بنطاله (الجينز) المكرر و(الكوتشي) الأزرق  
وقميصه الأرجواني مفتوح الزر الأعلى مثني الأكمام حتى الكوع وياقته  
الملقاة بعثية وساعته الضخمة.. ومشيته الواثقة في عبث كرجل لا يكثر

بالمحيط.. وابتسامته المائلة التي لا تفارقه.. تشعر وكأن جسده يخطو  
بأكمله، يهتز بكليته مع كل خطوة.. برأسه المرفوع وكأنه يفسح مجالاً لرقبة  
طويلة بارزة الحجرة تبدو كأنها امتداد لمساحة شعر ذقني متروك ليتركز  
حول الفم بعناية (دوجلاس).

يخيل للناظر دون أن يعرفه أنه الرجل اللامكترث الذي يتقن كيف ينجز أمرًا  
ما...!!

أفاتها صرير المقعد المسحوب جوارها وهو يجلس.. ليعيدها إلى مزيد من  
التوتر..

- إيه يا بنتي الشحوب ده.. أهو الموضوع عدى على خير أهو.. مشافتناش..  
حتتفرج على المسرحية دي وتتوكل على الله..

ربما كان يبدو أنه يداعبها بمزحته وعيناه معلقتان بسارة الشاردة جوار الفتى  
الأنيق بادي التوتر والخجل..

- هي الستارة حتتفرج إمتى؟!  
.....-

- هو الواد ده أخرس ولا إيه؟

لم يكن التوتر ليمنح رقية مساحات كافية لبعض الابتسام..  
فاكتفت بتأمل حسن وهو يتأمل المشهد بعناية.. يتخلله بعض الضغط العابر  
على أسنانه يبدو من حركة خافتة بعضلات خده.. وابتلاع متكرر لريقه..  
ربما هي المرة الأولى التي تلاحظ فيها مجاهدته لئلا يبدي انفعاله..

- الواد ده شكله طري أوي.. ولخمة كده..  
قالها حسن ثم اكتفى بتنهيده وهو لا يجد من رقية سوى خرس غرائبي  
مؤقت..

- طب أنا حقوم أجيلنا نسكافيه.. ولا عاوزه حاجة تانية..؟  
اكتفت بإيماءة صامته للموافقة وهي تشاهده يدور حول الطاولة ابتعادًا عن  
مرأى سارة وجليسيها..

وطوال غيبة حسن بداخل الكافيه.. لم يكن يبدو كثير حراك على سارة  
وجليسيها.. كان صمتهما أكبر.. يتخلله بعض الأحاديث العابرة البسيطة..  
( فعلاً شكله ضارب لخمة) هكذا حدثت رقية نفسها بصوت حسن داخلها  
وهي تبتمسم..

تشاهد حسن يحمل كوبين من النسكافيه..  
حتى تلك اللحظة كانت رقية قد بدأت تعتقد أن الأمر ربما يمر بسلام.. فوجه  
حسن الباسم لم يكن يحمل مكره المعتاد..

ولكن فجأة قد ارتعد قلبها وكأنه سقط من صدرها وهي تجده ينعطف فجأة  
بدلاً من التوجه لطاولتها.. ليتوجه نحو طاولة سارة!!!

لا تدري هل سمع المحيطون شهقتها وهي ترى (حسن) يسحب مقعدًا  
ويجلس جوار الأم مقابل سارة و(العريس) المحتمل...!!

أربعة وجوه فادحة الاستغراب قد بدت عليها إمارات مختلفة من الدهشة..  
رقية فاغرة فمها من أثر شهقة.. وسارة مفتوحة العينين قد توقف قلبها عن  
النبض للحظات قبل أن يدخل مرحلة قصوى من النبض المتسارع.. والأم  
(عمرو) يحدقان في المتطفل الذي جلس إلى جوارهما..

- أنا قلت أكسر الصمت.. وأدوب الجليد..  
قالها حسن وهو يبتسم مادًا يديه بكوب (النسكافيه) يضعه أمامها..  
- لآتية معلقة سكر واحدة.. زي ما بتحبيه في العادة!  
أما انت بقى.. فقوم هات لنفسك..

كثير من التساؤلات كانت تدور في خلفية أذهان العيون المحدقة في اقتحام  
حسن السافر للجلسة.. ولا شيء منها قد تسرب للأفواه.. وقد كبلت  
الدهشة الألسنة!

وحسن يريح ظهره بالمقعد في هدوء وهو يتابع:

- سارة! هو النقاب الزهري ده الزي الرسمي للمقابلة الأولى ولا إيه!!  
ويلتفت إلى (عمرو) المشدوه ينتظر تفسيرًا أو تعريفًا للفتى الدخيل:  
- لا مؤاخذه يا دكترة.. أصلها كانت لابسة نفس الطقم أول يوم قابلتها..  
بس أظن كانت سعيدة أكثر..!كنت ممكن تاخذ بالك من خدودها ونغازاتها  
تحت النقاب من فرط السعادة..!!

بس النهاردة هي مطفية!!

تغيرت ملامحه الضاحكة نحو الجدية وهو يشاهد الرعشة البادية على يدي  
سارة وهي تواجه تساؤل أمها الذي اقتحم المشهد حينها:

- أنت مين؟!.. مين ده..!

يلتفت حسن نحو الأم في تحدٍّ سافر وهو يقول:

- لا مؤاخذه يا حاجة.. آسف ع التطفل ده.. بس أنا قلت أساعدكم تاخدوا  
قرار ف الجواز دي..

ثم يلتفت نحو عمرو متابعًا:

- إلا قوللي إنت ليه ماتجوزتش لحد دلوقتي.. بيقولوا (لو كان فيه خير..  
مكانش رماه الطير)!

- أنا مش فاهم حاجة..

هكذا خرجت جملة متحشجة ومرتعشة من فم (عمرو) المذهول.. أطلقها  
في الفراغ باحثًا عن يلتقطها فلم يجد سوى حسن يميل نحوه وهو يحدق  
في عينيه دون رمش مجيبًا بصوت هادئ ظاهر التحدي:

- معلىش بقى يا دكتور.. أنا عارف إن الموقف ده ممكن يعقدك ف الجواز  
بقية عمرك..

بس للأسف زي ما بيقولوا في الأفلام معندناش بنات للجواز!!

ثم عاد لجلسته المستهترة وهو يشعل سيجارة (دافيدوف) وسط صمتهم  
ويرافق نفثته الأولى رشفة من قهوته ثم يطلق ضحكة ممزوجة بقوله:

- الرقم اللي طلبته غير متاح..  
محجوز.. حته الأرض اللي إنت نازل تشتريها بفلوس الخليج عليها مشاكل..  
محل نزاع.. إنت مش قده!  
ألقي حسن قنابله الكلامية الغامضة ثم هب واقفًا حاملًا قهوته وهو يعتمد  
نفث دخان سيجارته بوجه (عمرو) الذي بدأ يغمغم بكلمات غير مفهومة  
امتزجت مع كلمات الأم العصبية المملوءة بالتساؤل ورعشات (سارة) التي  
ألجمتها الدهشة وتراكت داخلها انفعالات الغضب..  
حينها أطلت (رقية) الباكية على الصورة تضع يديها على كتف (سارة)  
المرتعدة:

- أنا أسفة ياسارة.. منك لله يا حسن.. إنت وعدتني.. حرام عليك والله!!  
كان مشهدًا سرياليًّا دراميًّا غامر التناقض وسارة تزفر غضبًا مزيحة يدها  
وهي تردد:  
- إنتي!

وحسن يتابع تهكماته وهو يميل ليضع يده باستهتار متكئًا بقهوته على شعر  
(عمرو) المصفف وهو يمط شفثيه قائلًا:  
- أنا وعدتك إنها مش حتشوفنا قاعدين!

ثم يحمل قهوته وسيجارته ويرحل.. والكل يتأمل رحيله العابث وقد لاحظ كل  
رواد (الكافيه) وجود مشكلة ما بتلك الطاولة المضطربة بالانفعال!! والتي  
وقف أصحابها يشاهدون (حسن) يرحل غير عابئ بعواقب اقتحامه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتمكن أحد ولا حسن نفسه من تفسير ما حدث أو فهم منطلقات حماقته  
الاقتحامية يومها..!!

تروي رقية أن سارة قد تمزقت بها علاقتها بالكلية بعد محاولات مضنية منها  
أن تؤكد عدم تورطها في تدبير حسن القاسي..

كان هذا الموقف بحق هو ما قلب حياة سارة رأسًا على عقب.. فعقب توتر  
علاقتها بوالدتها.. وسماعها كثيرًا من الاتهامات التي كملت إليها عبر عائلتها..

ورغم هذا فلم تتمكن من مدافعة فكرة التماس بعض العذر.. وشعور رقيق  
يسري في كواليس ذهنها (إنه لم يكن ليقدّم على حماقته تلك إلا انطلاقًا من

كونها لم تكن قط محض رقم في عداوته!!).. ولكن هذا الشعور الرقيق لم  
يلبث أن ذاب حين تجمع غضب الأكوان داخلها وراء صورة حسن الذهنية..!!

ربما كانت هي تنتظر عودته يملؤها ذات الحمق الأنثوي المشترك المتمثل  
في ترقب عودة الحبيب الراحل ليقبل موضع الجرح وهي تعتق له المغفرة

في غيبته لتسكبها تحت قدمي عودته!

دائمًا ما أشاهد هذا الأمر لدى كل امرأة تأتيني تشكوني هجران حبيب رحل  
أو غدره عاشق الأمس، وهي تنتحب وربما تسب أو تتوعد وترفع للسماء

دعوات الويل.. ولكنها رغم كل شيء تبقى منطقة ما من نفسها تنتظره!

جزء غرائبي من الأثنى يوقن أنها ستتمكن من المغفرة والمسامحة فقط إن عاد!

إن المرأة لا توجعها المواقف ولا تحمل نقيمتها على مقدار الإيذاء في العلاقة قدر ما هي تمقت الرحيل!

وحده الهجر يستحضر غضبتها ودعواتها بالثبور!  
كل امرأة قريبة هي امرأة مأمونة... لا تخف من امرأة إلا إن هجرتها!  
قد ظنت سارة لوهلة أنه اقترف حماقته تلك ليمنح نفسه فرصة ثانية يعيد فيها لملمة ذاته دون أن يعود ليجدها محتلة برجل غيره!  
وتتخيل حينًا أنه قد استيقن من حقيقة مشاعره نحوها واستثنائية تنزيلها على قلبه!

وربما هو فقط مجرد غبي.. يفعل انطلاقًا من كونه محض أحمق!  
ولما طال انتظارها لظهوره أو اعتذاره، وطال تلمسها لعودته بدأت تستفيق من حالة الإنكار التي كانت تحياها، فكان الأمر كافيًا لتحطيم كافة تجملاتها الاجتماعية القديمة فتوجهت فيوضات الحنق التي خلقتها حماقات حسن نحو بقية زوايا حياتها! لتتمرد سارة على ما تبقى من السلطة الأبوية التي خدعت مراهقتها الانفعالية وأقنعتها بالنقاب في الثانوية عبر أمها صاحبة الرؤية الدينية الأقرب للخرافة!

الأم التي كانت تحشد حياتها بتصورات الجن والحسد والمس والربط والقسمة والنصيب!

كان تدين (سامية) والدة (سارة) أقرب للتدين الجمعي الشعبي منشؤه الخوف، ينسب فيه الإنسان الظواهر الخارجة عن نطاق تفسيره لقوى أخرى غيبية مزاجية غير متوقعة الحكمة، غير مأمونة القرارات؛ ليتمكن من ابتلاع حالة انعدام المعنى في حياته!

ربما قد حملت سارة من أمها قديمًا ذات المسحة من التدين، تدين تسكين الحيرة وقمع الأسئلة بدلًا من الإجابة عنها وقت الشكوك بدلًا من مغالبتها!  
فحرام قديمًا في أعراف سارة كان التفكير في الحكمة وراء التشريعات، وحرام كان الخوض بالخاطر في حقيقة حرية الإنسان وعلاقتها بالقدر، وحرام كان خروج الشك والتساؤل حول العدالة في الدنيا..!  
والأهم أن الظن في إمكانية خروج اختيار شريك الحياة عن منظومة القسمة والنصيب كان يعد أقرب للتجديف والهرطقة!

وحده حسن قد حطم قيود تساؤلاتها ومنحها حرية التشكك وإعادة تقييم اعتقاداتها التي لقنوها إياها قبل نشوء حواس النقد لديها!  
ليرحل حسن مانحًا إياها مع تحررها سورة غضب تمتد نحو طرازها المظهري.. فتقرر خلع النقاب!

- بعدها عرفت أنها خلعت النقاب.. وتحولت شخصيتها تمامًا.. معرفش أبعادها كاملة.. بس هي مبقتش سارة اللي كنا نعرفها أبدًا..

بيني وبينك.. محدش فينا فضل نفس الشخص أبدًا..  
حتى حسن وقتها حس إن الموضوع بدأ يخرج عن سيطرته والمسح اللي  
جواه بدأ يفقد تحكمه فيه..  
وأظن ده سبب لجوئه إليك..

كانت رقية ترتعش وكأنها تستعيد معايشة المشهد بالكامل.. يخيل إليّ حينها  
أنها تتمنى لو استيقظت يومًا فوجدت كل هذا لم يحدث من الأصل.. ولم  
يؤلمها يومًا (ضرس) سيؤدي حشوه إلى حشو حياة بضعة أشخاص بالبؤس  
والوجع.

- بس تعرف.. ساعات بحس من غير مبالغة إن أكثر حد موجوع من اللي  
حصل ده وعاجز فعلاً إنه يتجاوزه أو يتعايش بعده.. هو حسن نفسه!!  
سؤال واحد نفسي أسأله لحد زيك فاهم دنيا.. مين الضحية ومين الجاني؟!  
التقطت نفسيًا عميقًا وقد أجمني التساؤل..  
لا يمكنني أن أعد حسن معذورًا وأبرر له بخلفيته النفسية أفعاله وعواقب  
سلوكه..

كما لم أستطع حتى الآن أن أعتبره مجرمًا مؤذيًا بالكلية..  
ولم أزل أيضًا عاجزًا عن التعاطف معه بالكامل أو تصديق توبته..  
ولكن لم يكن تساؤل رقية هو ما يشغلني.. قدر وقوفي عاجزًا عن التدخل  
بنصيحة ما.. وقد تفلتت مني حكمة طبيب النفوس أمام تشابكات قد مضى  
أوان حلها..

ولكنّ تساؤل آخر كان يشغلني.. هل يمكن تغيير حسن وتحويله إلى كيان  
بشري متزن وسوي وقادر على الحب!!  
وما أقصى ما يمكن أن يقدمه طبيب نفسي في حالة كتلك!  
تخرجني رقية من انكفائي الداخلي وشرودي الجواني وهي تعيد السؤال  
بتنبيه مفاجئ..

- مفيش ضحية كاملة ومفيش جاني مطلق في الدنيا عمومًا.. فما بالك  
بحدوتة زي دي..؟  
وتقييم اللي فات بإصدار أحكام مظننش حيفيد أي حد من مصابي المفرمة  
دي!

تأملت رقية ساعتها مدركة أن وقت جلستنا قد انتهى.. فأخذت تلملم حاجتها  
وهي تمنحني صفة حديثة جديدة وهي تقول في طريقها للرحيل:  
- عمومًا هي سارة اتخطبت بعد كام شهر.. وحاليًا بتجهز ف شقتها.. ده اللي  
أعرفه..

قد يخيل للبعض أن التجاوز سمة إنسانية شديدة اللصوق بالبشر، وأن الحياة  
لا تقف على شخص بعينه.  
ولكن هل ينتهي الأمر بمجرد التعايش الظاهري؟! ألم تنزل بأرواح كل منا في  
هذه اللحظة جيروح ما برحت تنزف داخليًا ولا أحد يدري!

إننا لا ننسى حقًا.. ربما نتناسى، ويبقى التجاوز محض محاولة متكلفة ممتلئة  
بالعناء للمجازة.

ربما لا تقف الحياة على شخص بعينه فعلاً... ولكنها أيضًا لا تعود أبدًا كما  
كانت قبله!

- خلي بالك من حسن يا دكتور... الراجل ده مستحيل يكون شخص سيئ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



أن تعرف جيدًا مناطقك المظلمة وجوانبك السوداء.. تلك هي الطريقة  
الوحيدة للتعامل مع سواد الآخرين!  
(كارل جوستاف يونج)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



لم يعينني كثيرًا الحصول على عنوان حسن من رقية التي رافقتني في طريقي بين أزقة العطارين القديمة وأبنيتها التراثية، يشق طرقاتها (الترام) الأصفر الذي تولى عن دوره كوسيلة مواصلات ليصير أكبر صانعي أزمات مرور وسط البلد، ربما لا يرتاده سوى ذوي المعاشات أو الباعة المتنقلين، يلقون بضاعتهم عنوة على أفخاذ الركاب يمزجون التوسل بالبيع المتطفل، وربما يرتاده بقية من قدامى النشالين الذين يحفظون مواقيت ذروته ومنعطفاته يقتاتون على هاتف ما أو بقية من موارد موظف بسيط لراتبه! تتحرك في شوارع أقرب للأسواق، تمشي السيارة فيها بسرعة ثلاث أقدام في الدقيقة تقارب سرعة المارة المتنقلين ببطء في طريق التهمت حوافه عربات الباعة وامتدادات الدكاكين والمقاهي.

أوقفتني أمام مسجد سلطان الذي تملؤه دومًا رائحة الموت حيث لا تخلو صلاة نهائية فيه أبدًا من جنازةٍ ما؛ لاتساعه وقربه من مقابر كرموز (العمود) الشهيرة!

الموت شديد السطوة على بلدتنا فأكبر رموزها الأثرية القديمة منارة الإسكندرية وعمود السواري البطلمي، كلاهما قد أطلق اسمه على أحد المقابر الكبرى لقربها منها، لذا صار اسم (المنارة) و(العمود) علمين يبادران صورة المدافن لا المعالم الأثرية في ذهن المواطن السكندري.

وأمام المسجد أشارت رقية إلى بيت قديم مكون من ثلاثة طوابق بالغة الارتفاع كعادة بنايات الإسكندرية القديمة التي يبدو الوصول لسقفها من الداخل كرحلة بالغة المشقة من شدة ارتفاعه، وكان ساكنيها كانوا من العماليق أو أن مقاوليها كانوا من المصابين بفوبيا الأماكن المغلقة فأدمنوا شساعة المساحات الفوقية بإفراط!

ودعتني رقية ورحلت لأكوم سيارتي في مساحة فارغة على بعد بضعة شوارع جانبية وأعود سريعًا نحو بيت حسن ملتهمًا سلمه الجرانيتي سريعًا نحو الطابق الثاني حيث أخبرتني أنه يسكن.

ما كدت أضغط جرس الباب حتى فوجئت بفتحه وكأن مقبضه موصول بزر الجرس، ليطالعني وجه امرأة يمكنني أن أتساهل في وصفها بالخمسينية تبدو كسيدات الأعمال غير متوافقة مع البيت المتواضع شديدة التزين وكأنها تنتظر مقابلة تلفازية رغم سنها ومفاجأة زيارتي!

- مساء الخير، أنا خالد العطار صديق الدكتور حسن.

كانت الساعة لم تغادر الثانية ظهرًا، ولكن المساء في أكوانا واسع السيطرة ديكتاتور السيادة لا يمنح (صباح الخير) سوى بضع ساعات لا تجاوز أصابع اليد الواحدة ثم تمتد سيطرة (مساء الخير) رغم ضوء الشمس الساطع على ما تبقى من أزمئتنا!

أمام وجه (نجوى) أم حسن يحضرنى تساؤل داخلي عن التجانس اللفظي بين (المساء) و(النساء)، أليس هناك بحق تشابه واسع بين المرأة والليل! تتأملني (نجوى) قليلًا، تتفرس ملامحي وكأنها تحاول تذكر مقابلة سابقة أو وجه شبه ما ثم تبتسم ابتسامة مائلة نحو اليمين قليلًا وهي تقول في مكر ضاحك:

- قصدك دكتوراه النفسي، على فكرة أنا اللي رشحتك ليه.  
هو حسن ما حكاش ليك عن تاريخه مع الطب النفسي، سيادتك تبقى رقم أربعة!

ما تقلقش يا دكتور أنا تقريبًا أعرف عن ابني كل حاجة! أحببتها في توجس وأنا أصطنع وجه ترحيب مبتسمًا لأخفي تساؤلاتي عن هذه العلاقة المتناقضة بين ادعاءاتها بالقرب من حسن وبين حكاياه عنها! - أنا أصلي بحاول أوصل له بقالي فترة لكن دايمًا موبايله مقفول. تفهقه بغرابة وهي تقذفني بجملة (اقتحامية) مفاجئة قائلة:

- إنت كان ممكن تروحله العيادة، بس أظن حاجة جواك كانت مخلياك عاوز تشوف (الوحش) اللي صنع حسن!

أفتكر يا دكتور إن سبب زيارتك هو أنا مش حسن! هل استقى حسن اقتحاميته وجرأته اللاذعة منها أيضًا! لا أنكر أنني فقدت اتزانى الذهني لحظيًا أمام هجمتها اللفظية وأنا أتساءل داخليًا إن كانت محقة فعليًا من زاوية ما!

ألم يكن شيء داخلي يتمنى لو اطلع عليها، تلك الأم التي تلتف حولها جميع خيوط الحكاية وتحتشد حولها الصورة وكأنها مركز الاضطراب ومحور انجذاب عقد حسن بأسرها!

استعدت اتزانى سريعًا وأنا أعمد إلى محاولة اجتماعية حيادية منمقة قائلًا:

- وحش إيه يا فندم بس!!  
وبعدين حسن شخص مميز جدًا وأكيد حضرتك صاحبة فضل في تربيته هو وإسلام، وأكيد حبة المشكلات البسيطة اللي بيمر بيها دي مجرد آثار جانبية لتميظه!

وكانها لم تكثر لمجاملتي المتهربة من المواجهة فهزت رأسها بلا اكترات وهي تفتح الباب أكثر:

- هو حسن مش موجود زي ما أكيد حضرتك متوقع؟!  
لكن اتفضل يا دكتور، أنا حابة أتكلم معاك.

لم أقاوم دعوتها كثيرًا فوجدتني أنساب بتلقائية متخليًا عن حذائي على عتبتها لأدلف إلى شقة متوسطة الحال تحمل صبغة الذكورة الفوضوية التي يتشاركها أخوان يستخدمانها بشكل أقرب للفندقية منه للسكن والبيتوتية، وربما لا يجتمعان فيها بيئًا إلا فيما ندر!

وأم تغالب وحدتها أنيقة كمرشحة لمجلس النواب تجتهد لحشد الإعجاب! ذات شعر رمادي منسق يختلط فيه الأبيض والأسود تمامًا كشخصيتها، لم تمتد يد التغيير لشعرها بالصغ في غرابة إنما امتدت يد التنسيق لتصفيفه ليبدو ثائرًا متدرجًا حول وجهها كحلقة نار، كتصفيف الطبيعة لوجوه الأسود البرية وكأنه تاج الملك الغابوي!

تجاعيد خافتة تبدو على استحياء حول العينين والشفيتين تمتد بعدها لتغزو الذقن نحو الرقبة، تجاعيد يخيل إليك أنها مفتعلة كتتكرو وجوه ممثلي السينما الشباب في أدوار العجائز، ربما لو أزلتها لواجهك وجهًا بالغ الحسن مصفوف الملامح بعناية نحات مبدع لن تجد مقاومة في السقوط إعجابًا ببهائها!

تدخلني (نجوى) إلى غرفة (الصالون) المواجهة للباب، تبدو الغرفة بصالونها (الأرايسكي) العتيق والتراب الذي يعلو منضدتها الرخامية التي تتوسطها كدلالة على ندرة الزائرين للبيت الذي تشتكي جدرانها قلة المحادثات!

- لو الحيطان ليها ودان، يبقى حيطان البيت ده غالبًا ضمرت ودانها وجالها طرش من قلة الكلام!

هكذا ستخبرني نجوى قبل أن تتركني لتُعد لنا كوبيين من الشاي.

في إطلالة بعيدة لا يمكنك أن ترى شبهها واضحًا بينها وبين حسن، ربما يصعب عليك كثيرًا ربط ملامح حسن بملامحها، ولكن حين تقترب منها فتشاهدها وهي تتحدث بصوتها المتأرجح بين الدفء الهادئ والانفعال المتقلب المتعدي على حروفها تتخيل لحظتها أن روح حسن تتلبسها وتحتلها كروح دخيلة!

يتبدى الشبه بينهما في نمط الحديث وربما الصوت الذي يحمل نكهة مشتركة افتقرت فقط على منعطف نبرتي الذكورة والأنوثة!

وتلك البسمة المائلة التي تخلط المكر والمرارة. لا يحتاج الأمر إلى طبيب نفساني ليدرك الصلة العميقة بينهما وهذه الحروب التي يشعلها كل منهما في نفس الآخر.

أمام وجه نجوى وهي تتحدث عن حسن ورعشة صوتها الشفيفة حين تذكر اسمه تشبه تلك الرجفة في فمه وهو يتحدث عنها، هناك تجلت لي الرؤية الفرويدية عن هذه المنطقة الشائكة في علاقة الولد بأمه، تجلت لي حقيقة أوديب وجوكاستا متشخصة!

تشابك روايات حسن مع حكايا نجوى ولا تتعارض، فكلاهما صريح إلى حد الصدمة رغم مكره، كلاهما لا يلون الحدث ولا يلويه لصالحه، كل منهما منحني زاوية من الصورة من عدسته الخاصة!

هل هناك حقيقة مطلقة كاملة أم هي محض رقع من الحقائق الذاتية كل منا يراها من زاويته!

وحدّي رأيت القصة كاملة هناك أمام صينية تحمل كويين من الشاي الساخن مفرط السكر ووجه نجوى وحكاياها!

بعد كثير من المقدمات الاجتماعية تتراوح بين الترحيب والسؤال عن أحوال حسن ورؤيتي لمشكلاته وإعرابها عن قلقها الأمومي الذي ينهشها تجاهه.. وكثير من الشعور بالذنب الذي تحمله نحوه ونحو أخيه!  
- بس انت طلعت أصغر كثير مما كنت متخيلة!

إنت تقريبًا في سن حسن!

قالتها وهي تناولني كوب الشاي وتجلس قبالي وهي تتابع:  
- بس براقو عليك الصيت ده بالنسبة لسنك، أنا كده متفائلة جدًّا ويمكن كده فهمت ليه انت بالذات اللي هو حابب يكمل معاه، أكيد انت ممكن تفهمه أكثر من أي دكتور شايب!

اكتفيت بابتسامه وإيماءة امتنان وأنا أرتشف رشفتي الأولى من كوب الشاي في انتظار روايتها.

- تعرف إن فيك كمان شبه منه!

لا أنكر أنني لاحظت هذا الأمر منذ إطلالة حسن الاقتحامية الأولى، بعض الشبه الشكلي العام بيننا فكلانا الأسمر الطويل النحيل نسبيًّا منحوت الملامح عريض الجبهة يفوقني هو وسامة وخبلًا وأفوقه ترتيبيًّا وتناسقًا.  
تساءلت داخليًّا أمام جملتها ( هل كان من الممكن أن أكون حسن نسبيًّا فقط إن كنت خضت ظروفًا مختلفة وحملتني أم كنجوى! )  
هل أنا أخلاقي النزعة بالصدفة البحتة؟!

وهل أخلاقياتنا المزعومة هي محض ظروف مواتية للتنشئة السوية، وشورور الآخرين محض اتفاق عفوي من ملابسات القدر!

- كنت بحب حسن من أول يوم حملت فيه يمكن أكثر كمان ما كنت بحب أبوه!

تغير صوتها من الهدوء نحو الحدة وهي تهمهم ثم تستطرد:  
- بيتهيا لي مكنتش بحب أبوه، لا لا أنا كنت فعليًّا بكره أبوه، كان شخصية باهتة كده مفيهوش شيء مميز.

بس كنت دايمًا بشوف فيه أبوه.. ملامحه وقسوته وأنايته ونزواته!  
واصلت رشقاتها متوقعة تفاعلي اللفظي ولكني كنت مكتفيًّا بمنحها تتبعًا شغوفًا وإنصائيًّا واضحًا لأدعها تكمل:

- صعب أوي على الست إنها تكره راجل وتسيبه وبعدين تلاقي نفسها مضطرة بالأمومة حنت منه شبهه بالملي!

ليه دايمًا اللي بنفارقهم مش بنعرف نتخلص من ذكرياتهم اللي متجسدة وراهم وكأنهم بيسيبيوها تنتقم مننا وتفضل تفكرنا بيهم!

بس في حالة شريف كانت ذكرياته هما ولادي حسن وإسلام اللي كل يوم كانوا بيتحولوا لصورة بالكربون من أبوهم!  
استمرت تروي لي قليلاً عن شريف والد حسن الموظف بشركة الكهرباء الذي ذاق منها شبابها الغض وهي ذات التسعة عشر ربيعاً في تعجل تزويجي من والدها الذي لم يستطع أن يجد في اعتيادية ظروف شريف سبباً لرفضه! هل يمكنك أن تحصل فعلياً على أسباب الطلاق بين عبارات مبعثرة وتبريرات من عدسة الأم التي تعاني من الاكتئاب الهوسي ثنائي القطب كما أخبرني حسن وأكدت هي بين طيات حكاياها وقد تشوه حكمها بانفعاليتها وغياب الطرف الآخر (شريف) الذي لا سبيل للحصول على حقيقته الخاصة ورؤيته!

وهل للطلاق فعلياً أسباب سوى غياب الحرارة والارتطام بحقيقة الانفعال الباهت تدريجياً والحب مؤقت الوجود الذي يذوب بفعل الاعتقاد والعشيرة. أو ربما الفراش الذي يغيب عنه انسجام البدايات وتوفيق العنفوان المعطل قبله!

هي أسباب ترتدي أقنعة أكثر ملاءمةً للحكي الاجتماعي!  
تخبرني في أسبابها المتقنعة:

- شريف كان يغازل طوب الأرض حتى أختي أنا نفسي!

بس مغازلاته كانت سمجة ونجسة وشبهه مش زي حسن كده شيك وراقي!  
وتحدثني كثيراً عن تعثره في الإنفاق على البيت تباخلاً وتفضيلاً لأنانيته.  
هي أسباب تكاد تكون جمعية ومشاركة الصياغة في الحالات التي أقابلها بعيادتي للانفصال!

أكتفي بأسبابي المتوقعة مضيئاً إليها مزاجيتها وعصابها المرضي وربما حدة لسانها الواضحة لأحصل على منظومة طلاق غير ممكن التأجيل بعد أربع سنوات وطفلين!

كل امرأة تظن الطلاق أحياناً هو المخرج من مشكلاتها لتُفاجأ بأنه فقط يغير نمط بؤسها ويبدأ بعته في مجتمعاتنا نوع مغاير من المشكلات!  
ففي بلدان الخوف والكبت تعد المطلقة ظلماً أحد اثنين إما صيداً ثميناً كاسد السوق سهل الاقتناء، وإما خطراً مستقبلاً، الأصل فيه السوء، وكأن الطلاق وصمة معدية!

تخبرني أنها حصلت بعد الطلاق على وظيفة إدارية في جمارك ميناء الدخيلة، لترتفع في ذهني ارتباطات جلوس حسن المتكرر مستنداً لسور الميناء الذي كانت تتيح له أمه مرافقتها للعمل هناك في طفولته أحياناً ليرتبط الفتى وجودياً بصافرات الميناء المدوية.

كانت انفعالات نجوى المركبة والمتطفلة على الحكي تدفعني نحو حيرة شعورية بين التعاطف مع الصورة التي ترسمها وبين الصورة المسبقة الشائهة التي استعرتها من حسن!

هل كانت نجوى معذورة وهي التي تحمل خللاً نفسياً لصيقاً يتجلى في تأرجحها الانفعالي غير الخاضع للتحكم متأمراً مع جمالها الأخاذ ومجتمعنا الأعنف خللاً والأعمق مرضاً، مع وحدة مضنية وحاجات مادية لطفلين لا يشبع جوع مطالبهما!

- أنت متخيل يعني إني حقولك إني الست اللي قعدت على ولادها ورفضت الجواز ودفنت عمرها وفنت شبابها من وهي عندها ثلاثة وعشرين سنة عشانهم.

لكن هو فعلاً فيه ست كده؟

كثير بسأل نفسي هو انا متجوزتش عشان الولاد ولا يمكن عشان مكانش فيه حد مناسب وقت ما كان ينفع؟

ووقت ما كان فيه حد مناسب.. مابقاش ينفع!!

لم تكذ نجوى تنهي جملتها الشاكية وأنا أجلس أمامها أتواري في رشفات الشاي وقد أخرجتني حيرتي حتى أنقذني صوت الباب الذي يفتح فجأة قبالي لأرى (إسلام) يدخل غير مكترث بالجالس مع أمه يمنحنا نظرة لامبالية عن السلام ويمضي نحو غرفة قريبة!

هي المرة الأولى التي تقع عيني فيها على إسلام ولم يحتج الأمر تعريف نجوى الممتلئ بالخيبة بالفتى.

إسلام شاب ملتج في أزمنة صارت اللحية صيحة شبابية فاختلطت فيها صورة (السلفي) النمطية ربما مع صورة مقلدي الموضات وربما مع صورة الوجودي المكتئب. وتتبع بقية صورة الفتى تدرك أنه ليس الأول أبداً.

يحمل شعراً نسبياً مرفوعاً برباط علوي يتفرق الشعر الخشن تحته بتعمد كفتاة مدرسية لا يناسبها سوي (الكيرلي).

يرتدي بنطال الجينز وحذاءً بنياً بارز الضخامة و(تيشيرت) أسود خفيفاً مرفوع الأكمام بغرابة في أحد أنواء يناير الشتائية، تظهر من رقبة سلسلة فضية غليظة لامعة تبدو أقرب لقيود الصلب (الجنزيرية) منها لحليّ التزين!

لا يعبا الفتى بخلع حدائه الملطخ بطين الشتاء ويمضي نحو غرفته وسيجارة متعلقة بشفتيه لا تمتد إليها يده أبداً يتابع بين أنفاسها دون أن يمسه فترى شهيقه وزفيره مترامين مع علو السيارة وهبوطها بطرف فمه!

يحمل قامة حسن الطويلة ذاتها وربما أشد قليلاً مع (شاسيه) أكثر عرضاً تظهر عليه بوضوح أمارات محاولات رياضية قديمة لملاصقة صالات كمال الأجسام يتبقى ذكراها في طرازه العضلي.

ملأني شعور بالشفقة علي إسلام مع تراكب صورته مع روايات حسن ونجوى، فقد كان يبدو مهملاً في هذه التراجيديا كوجود مجانيٍّ عارض لم يحظ بحفاوة الابن البكر ولا بتفوق حسن ومكانة طبيب الأسنان الاجتماعية.

حتى صديقه (رانيا) كانت منجذبة لحسن إلى حد الهوس وتلازم إسلام رغم اهتزاز قناعها به كنوع بديل قريب الشبه بحسن، يتجلى انجذابها في

اتصالاتها المتكررة بحسن تحت قناع (الأخ الأكبر) و(حلال المشاكل) الطارئة في حياتها وفي علاقتها بأخيه!

وقد باءت محاولاتها لإخفاء انجذابها لحين بالفشل فالتقطت إسلام ترددات مشاعرها مما زاد اغترابه وهوسه بالحياة الليلية!

كل منهما قد صار مشوهًا بطريقته، فإسلام قد دفعته هامشية دوره وافتقاده للقيمة نحو الحشيش وجلسات الأصدقاء اليومية ليتناسى حاله الدراسي الممزق كطالب في كلية الآداب للسنة السادسة دون أن يبرح الفرقة الثانية، وربما ليتحمل تقلبات أمه وحدثها ودوام شكائتها على ضياعه!

- الأم من دول تقعد تشكي ضياعك لحد ما تضيعك أكثر بدوشة شكاويها! الحشيش بس اللي بيخلينا نستحمل أسطواناتهم. هكذا يمزح إسلام في جلسة حشيش ذات مساء.

ولكن إسلام كان الأذكي دومًا في علاقته بوالده، فحين كانت لقاءاته بوالده دائمة الصراع مشحونة بالغضب يصارحه بحماقاته كان إسلام دائم المهادنة عبر الشكاية من أمه التي يهوى شريف وصفها بالمجنونة موافقًا إياه في لعنها متحصلاً على بعض النقود من الموظف الرفيع في شركة الكهرباء المقرب من المعاش وديسامة مكافأة نهاية الخدمة والوحيد بلا زواج للغرابة أيضًا بعد تجربة فاشلة أخرى.

يتمص بعض أمواله بدعوى الكورسات ومصاريف الجامعة لتسقط في النهاية بيد أحد اثنين إما (سمير) الديلر وإما (رزق) القهوجي!

تعيدني نجوى إلى كوب الشاي ومزيد من الحكى وهي تقول مازحة:  
- دلوقتي بقى عندي اثنين ملتحين!

وأمام صمتي الذي لم تكن تقطعه سوى غمغمات المتابعة تواصل نجوى:  
- يمكن الناس بتحكم عليا ويمكن حسن بيحكم عليا، ويمكن تكون إنت كمان بتحكم عليا.. لكن هل حد فيكم عاش نفس حياتي ونفس ظروفي عشان يقدر يحكم إن كان فيه اختيار ثاني لأي حاجة عملتها؟!

حد فيكم اضطر يكون راجل وست ومكنة فلوس لاتنين ولاد مليونين بالعناد ويربيهم ويدخلهم كليات محترمة من غير ما يبقى فيه نفقة ولا وظيفة مستقرة ولا راجل اتسند عليه!!

والأهم من غير أهل قريبين فارق معاهم حاجة!

كانت نجوى تدافع انفعالها الذي يحاول إقحام دمعة اضطرارية على تزيينها وهي تواصل منفعة:

- أنا عارفة إن لازم حسن يحكيك عن أهله وإنك لازم تبرر مشكلاته بسبب تأثير أهله وظروفه.

لكن مين حيحكيلك عن أهل أهله وظروفهم؟! مش يمكن تكون أفعال أهله نفسها مبررة بأهلهم هما وظروفهم وهكذا!

يمكن لحد ما نوصل للجاني الأول في الحدوتة كلها.. اللي ماسك خيوط اللعبة كلها سبب كل مشكلاتنا وتشووباتنا ويقدر يغير كل شيء للأحسن.. لكن مش بيعمل كده!

تقدر تقول اسمه؟!

قالتها وهي تضع الكوب الذي لفظ لتوه ارتشافته الأخيرة وكأن انفعالها كان يؤذن بنهاية اللقاء لأضع كوبي أيضًا وأنا أعتدل قائمًا مودعًا أستمع لتوسلات الأمومة فيها.

- أنقذ حسن بالله عليك، ساعده!

لأحمل نفسي في رحلة الرحيل مازًا بالبقالة المجاورة لبيتهم:

- علة دافيدوف من فضلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أدري متى طرأت فكرة اقتحامي لحسن في خلوته، هل بين يدي حكايا أمه التي أكملت لي عناصر القصة أم أمام توسلاتها.

كل ما أعلمه أنني وأنا أشتري علة سجائر دافيدوف للمرة الأولى منذ عشرة أعوام كنت أحمل دافعية حارة لمساعدة الفتى بحق.

لم يحتج الأمر مني سوى بضع زيارات مسائية لذات الموقع الذي حملني له حسن يومًا لأشاهد ذات ليلة ظلًا خافتًا تعكسه أنوار سيارتي من بعيد للفتى مستندًا كعادته على الحائط يشعل سيجارة.

أوقفت سيارتي بعيدًا عن إدراكه لئلا يلحطني وأنا أتسلل نحوه بهدوء في ظلمة الليل وغياب الإنارة كعادة الطريق المهجور.

وأنا أمر على الحشائش المبتلة بشتاء صباحي يوارى صوت خطواتي صوت الرياح الباردة ممتزجًا مع صافرات الميناء وأبواق سيارات النقل التي لا تسمع سواها كبصمة صوتية للمكان أتساءل كيف تصالح الفتى مع بقعة موحشة كتلك تبدو مسرحًا ملائمًا لأحد مشاهد أفلام الرعب القديمة.

وعلى بعد خطوات كان الفتى شاردًا في موقعه الغرائبي الذي يعادل مغارات انعزال الرهبان القدامى في عصور الصدق، يعكس الضوء الخافت النابع من سيجارته لحيته الجيفارية النابتة المستجدة على وجهه.

- إنت ليه دورت على طيب نفسي؟!

لم يستطع حسن أن يخفي انخلاع قلبه بالمفاجأة التي أصابته برودة فعل طبيعية منحت جسده تشنجًا لحظيًا كاد يسقط سيجارته وهو يتلع مباحثتي بسرعة مشهودة، لتبدو ابتسامته المائلة مع انعكاس احتراق سيجارته ناظرًا نحوي وهو يخبيئ كلاً من شروده و(خصته) في قهقهة مدوية تحملهما معًا ليتبددا مع دخان زفير سيجارته في هواء الليل البارد.

ثم يطالعني صوته الواثق وهو يدعوني للجلوس مفسحًا عن بقعة كارتونية مفروشة قائلاً:

- خلينا نكون واضحين يا دكتور..

إن العفونة حوالينا شاملة.. والعبث طافح الريحه.. والعالم بقى مكان  
بغيض.. وريحة أنفاس الهوا فيه بقت كأنها متربة..  
وإن التنمية البشرية والمواعظ والأحاديث التحفيزية والميديا والقراءة مجرد  
معطرات جو.. يدوب بتغطي ريحة العفن المحيط شوية..

ويتداربها مؤقتًا!!  
فأنا جيت أجرب الطب النفسي.. يمكن تكونوا بتعرفوا تسلكوا البلاعات  
الأصلية!

بس اتضح إنها مش قابلة للتسليك وإن العفن جوانا مش في الدنيا اللي  
برانا!

أخذت موقعي جواره وأنا أخرج علبة الدافيدوف الجديدة أمام استغرابه وأنا  
أخرج منها سيجارة وألتقط السيجارة من فمه لأشعل بها سيجارتي مجيبًا:  
- طيب ما أدينا عرفنا الموضوع اللي محتاج تسليك! يلا بينا نبدأ نتعامل معاه!  
كنت أعده ببرنامج تعافٍ جاد ومرتزن ومشترك لمحو ندوبه القديمة وإعادته  
لاتزانه..

كان عنيدًا في البداية نوع مغاير من العناد.. عنادًا يختلف كثيرًا عن تعاليه  
المعتاد ليحبيني في نبرة أقرب لليأس:

- مظننش إنك حتقدر تفيدني.. أفكر إن الوحيد القادر على إنه يديني تفسير  
كامل وخطة تغيير وكتالوج لروحي المتشوّهة دي هو ربنا!  
أنا قررت إني أروح لربنا المرة دي..

وتبقى السماء مستراحًا لليائسين، ويبقى الاضطرار وفقدان السبل هو  
المحرك الرئيس للمتوجهين نحو الدين.

أشعر أحيانًا أن كثيرًا من قرارات التدين والالتزام لا تنبع إلا من استيأس  
نفسى يمنح الدين لما تبقى من الأمل داخلنا ملادًا من سطوة الجزع.  
هل يكون الدين مجرد ردة فعل نفسية لإنسان فقد القدرة على تفسير  
الظواهر يحاول التمسك بالغيبي والماورائي ليمنح ذاته شعورًا زائفًا باستعادة  
السيطرة!!

لم يكن من الصواب مناقشة يأس حسن أو توجهه الديني لذا اكتفيت  
بمهادنته وأنا أقول:

- جميل جدًّا.. وإيه المانع إن ده يتم تحت مظلة برنامج نفسى. أو العكس  
مثلاً.. برنامج نفسى يتم تحت مظلة الدين..!!

ليه شايف إنهم طريقتين مختلفين؟

مايجي ننزل للغرقان اتنين غطاسين!

- تفتكر الناس ممكن يتغيروا فعلاً؟!

يعني كل اللي انت بتعافر فيه ده أصلًا قابل للتحقيق ولا الشخصية بقت شبه  
قالب الأسمنت الناشف اللي بكتيرك ممكن تضيف عليه رتوش بس؟

سألني حسن باهتمام حائر، لألتقط نفسًا آخر من السيارة وأنا أحاول أن أكون واقعياً قدر استطاعتي وأنا أقول:

- بص هو احنا بنختلف عن الوعاظ وبتوع التنمية البشرية فعلاً في إننا مش على نفس الدرجة من التفاؤل.

تغيير طباع الناس وإعادة تشكيل نفوسهم من أصعب المهمات لكنها مش واقعة في الاستحالة!  
ولكنها تحتاج إلى إرادة استثنائية من الشخص ودافع صادق للمساعدة من الطبيب.

لكني مؤمن جداً بالإمكان رغم الصعوبة!

لم يكن حسن في حالة تناسبها طاقة تفاؤل مثالية رفرافة منعزلة عن الواقعية لذا وجدته يلتقط سيجارة أخرى يلقم بها سيجارته التي أوشكت على الاحتضار وهو يشرد قائلاً:

- تعرف أنا شايف إني ماكنتش محتاج أم مؤذية ولا ظروف مضطربة عشان أتشوه..

ساعات بحس إن التربة نفسها كانت بايظة، جيناتي وتكويني الأصلي كان جاهز للتشوه، والدليل إن الناس بتعرض لنفس الظروف وكل واحد بيتشوه بطريقته!

هو احنا مش حاطين احتمال إننا نكون مكروهين من السما ومش مكتوب لنا أصلاً النضافة والطهر.

إلا هو يعني إيه (حق عليهم القول)؟

لم أكن أحمل جواباً شافياً لتساؤلات حسن الوجودية لذا اكتفيت بمشاركته الصامته للشروء، لأجده يقطع صمتنا اللحظي قائلاً بصوت أقرب للصياح يكاد يناقض انفعاله في اللحظة المنقضية:

- بس انت عارف، حتى لو تركبتي نفسها غلط أنا زهقت منها، ومجانينش ليك غير إني فعلاً عايز اتغير وملياني الرغبة إني أتغير، ومصدقك إن الناس ممكن تغير رغم القدر والظروف والجينات!

وأنا موافق إني أسبيلك نفسي!

ومضينا نتسامر على مائدة من علبة كاملة من سجائر الدايفدوف وساعتين. لم يكن تصلبه مقاومًا لصدق دافعتي لمساعدته حينها، وربما ساعدني يأسه لتتفق أن يتخلى عن تمرده.. ويقبل بموعد أسبوعي ثابت ولمدة ستة أشهر.. نخطو فيه سوياً نحو غلق ملفاته المعلقة وتحديد إطار جديد لسلامه الداخلي..



والإنسان ليس سوى ما يصنعه بنفسه!  
(مارتن هيدجر)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



كان الأمر يسير بسلاسة غير واقعية.. ومثيرة للريبة! ربما هو محض انفعال حسن المتأجج بالندم وحماسه البالغة تجاه إحداث تغيير جذري في بنائه النفسي.. هو ما جعله يبدو كأكثر مرضاي التزامًا وأبرزهم تقدمًا..

لحيته الخفيفة النابثة التي اتفقنا على تقصيرها قليلًا.. وبسمته الهادئة الجديدة كليًا.. وصوته المتأنبي خافت النبرة متباعد الكلمات.. كان يوم الثلاثاء يومًا قدسيًا مميزًا لكون حسن يتواجد بالعبادة بين الزوار بالخارج يشحنهم بحماسه ويغمرهم بخفة ظله!! كان يصر أن يكون آخر من يدخل لغرفة الكشف.. وربما يشاركنا طقوس غلق العبادة!

كان الفتى يحمل وجهًا جديدًا بحق.. يخبرني (مصطفى) أحد زواري والذي تقع جلسته الروتينية الثلاثاء قبل جلسة حسن دومًا:

- ساعات بحس إنك متشائم يا دكتور.. وإنك جوه نفسك شايف إن الناس مش بتتغير.. وإن مفيش جدوي من اللي انت بتعمله! حتى (مصطفى) صاحب الشخصية الانسحابية الذي كان مغموسًا في القلق.. قد صارت لهجته غريبة قليلًا.. بعدما حضر مع حسن بعض دقائق الانتظار بالعبادة..

كانت روح حسن معدية بشدة في كل حالاتها.. لا يمكنك أن تجالسه بضع مرات دون أن يلتصق بك شيء من ملامحه.. تصبغ ملامحك أنت! مصطفى مدرس اللغة العربية الملتزم بكل سخرية الأقدار الغرائبية المحيطة بكل خطوات حسن..

قصير القامة ضعيف البنية نسبيًا يحمل بوارد الصلع الذكوري المبكر قبل ملاقة منتصف ثلاثينيات عمره مع شارب خفيف الرقود على شفثيه الرفيعتين اللتين تتكئان على وجه صغير قد انزوى شحوبًا. يعاني من اضطراب الشخصية الاجتنابية مستغرق في التردد حتى يعيبك سماع صوته الخافت أو تمييز إجاباته المتخوفة دومًا.

بملايسه الكلاسيكية يظهر ككاتب محكمة خرج لتوه من فيلم قديم، بحذاء أسود متكرر مثالي اللمعة وبنطال فضفاض يهيا إليك أنه بعض ميراثه من أب متوفى من خمسة أعوام يدخله بعناية قميص ثنائي الجيوب مغلق الزر

الأعلى لا تدري هل اشتراه من محل للباس التنكري كزيّ هارب من حقبة السبعينيات أم قد تم تفصيله على المقاس من هواجسه!  
وقد شاءت أقدار حسن أن يتصادف وجود مصطفى في صالة الانتظار بالعيادة كعادته الوسواسية مبكرًا عن موعد جلسته يوم الثلاثاء بساعتين، يوم أن قرر حسن أن يقبل بقواعد (سماح) في الالتزام بمواعيد العيادة والحجز المسبق.

لتضع (سماح) الجاهلة بأبعاد حالتها مقعديهما متجاورين لتبدأ صداقة ما كان لها أن تكون!

ولم أكن أنا الملتزم بحدود غرفة الكشف أتوقع حدوثها حتى وجدت حسن يومًا وقد ملأه الإشراق يحدثني ذات جلسة عن تقديره المفرط لمصطفى:  
- أنا اكتشفت إن عمري ما حافظت على علاقة صداقة!

فقررت أني أبدأ علاقة صداقة صحية مع مصطفى يمكن تخرجني من خوف الوحدة اللي كان موصلني لهوسي بالبنات!

مصطفى شخص دافئ ومتدين ونزلنا مع بعض مرتين ثلاثة... خجول شوية لكن فعلاً صحبته ممتعة!

لم أكن متفاجئًا باتزانة حديث حسن ولا بقراره العقلاني ولا بأثر برنامج التعافي السريع على تفكيره... إنما مفاجأتي كانت في اختياره!!

هذا الشاب بكل عبث الحكمة القدرية الساخرة الذي قرر حسن أن يكون صديقه (المثالي).

لولا ألف زائدة على الكلمة لكانت الجملة أصدق..

فصديق حسن (المثالي) هو (مثليّ) الجنس!

ولكنني لم أستطع أن أخبره...!

ربما كانت سطوة جاذبية حسن قد تعدت الحاجز الأنثوي لتسقط في براثتها ذكراً مثليّ التوجه الجنسي جاءني ليتعالج من هذا التناقض الذي أورثه إياه توجهه الجنسي غير المنسجم مطلقًا مع مجتمعه الشرقي واعتقاده الديني وتبعاته على حياته من القلق المفرط والاجتنابية والانعزال!

ولم أكن بالطبع نتاجًا لسياسة الخصوصية والسرية مخولًا لإخبار حسن بإشكالات صداقته الكارثية مع مصطفى على كليهما!

لذا اكتفيت بالإيماء بالقبول وإبداء كثير من التشجيع حول الفكرة عمومًا والتأكيد على عدم ربطها بشخص بعينه، مؤجلًا تدخلي الاضطراري العاجل لحين رؤيتي لمصطفى في مواعده المقبل قبيل جلسة حسن.

هل هذا ما كان ينقص الحكاية من كعبلات غير متوقعة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- شخصية جميلة إسراء اللي بتدخل قبل مصطفى دي على فكرة.  
قالها حسن في بدء الجلسة يومًا وهو يجهز جلسته المعهودة وينسق المقعد المقابل للكنبة ليرفع عليه قدميه.

قالها دون أن يدرك أن عبارة كتلك كانت كفيلاً لتدق بخاطري أجراس الإنذار للمرة الثانية!

فأنا لم أكد أدأوي مصطفى من آثار تنزل حسن على عالمه المتوتر. هل يجب عليّ أن أزود كافة عملائي بأنظمة حماية مخصوصة لتقيهم هوس الفتى باقتحام عوالم الآخرين ليمنحهم ارتجاجهم الأعنف! أن يحظى حسن بدقائق مشتركة مع إسراء في صالة الانتظار هو أمر يكفيه ليمنحني تحليلاً كاملاً لحاجاتها وأوجاعها ووصفاً مفصلاً لكنوزها الدفينة. ربما يملك حسن من الموهبة ما يجعله يمسك في دقائق ما نحتاج إلى عشرات الجلسات لندركه نحن!

وجدتني مدفوعاً بتخوفاتي أسأله في صرامة:

- أنت بتيجي بدري ليه يا حسن؟! وليه فجأة بقيت بتستنى دورك! ليه مصمم تضطرنى أعاملك كمريض أو ناقص الأهلية، وأحمي اللي حواليك منك؟!

ولكن حسن لم يبد عليه أية أمارة للاهتمام بما قلت وكأنه لم يسمعني واستطرد يقول غير مكترث بانفعالي:

- أنا شايف إن الحبوب اللي في وشها دي ووزنها الزايد هي السبب في تشوه صورتها عن نفسها، وبالتالي هي السبب في توترها وقلقها وهي بتتكلم مع أي حد..

إنت بتعالجها من الاكتئاب مش كده؟!

زمنت شفتي في تأفف وأنا أجيبه كاتمًا انفعالي المتصاعد:

- مقدرش اتكلم عن أي عميل عندي!

هز كتفيه بذات اللامبالاة وهو يقول:

- إنت فاهم غلط، أنا بحاول أساعدك تساعدها،

اللي زي إسراء دي مثلاً كل اللي محتاجه تحويل انتباهها عن عيوبها وتوجيه تركيزها ناحية مواطن تميزها، ساعتها صورتها عن نفسها حتقوى شوية واكتئابها حيتحسن!

كان حسن يتحدث بجدية كاملة أجبرتني على الابتسام وقد بدد اهتمامه انفعالي الغاضب وأنا أمازحه:

- إنت خلاص بقيت دكتور نفساني كمان!

ليتابع حسن بذات الوجه الخالي من المكر المعتاد:

- الموضوع مش محتاج دكتور والله، تقدر تقول كده بحاول أستثمر طاقتي في شيء مفيد، بحاول أوجه موهبة فهمي للناس في اتجاه صحي أكثر.

زي ما واحد عدواني يقرر يوجه غضبه في إطار مقبول اجتماعياً ويلعب ملاكمة مثلاً، وساعتها حتبقى عدوانيته المجتمع بيصقلها!

اكتفيت بالصمت والإيماء وكأني أدعوه للمواصلة، فأخذ يتابع:

- عارف أنا قعدت جنبها النهارده ودردشت معاها بشكل عادي وفي الآخر أقنعتها إن إيديها حلوين جدًّا، وإنها لازم تشتغل موديل للساعات الحريمي أو المانيكير مثلاً!

كان نفسي تشوف وشها نَوَّر ساعتها إزاي؟!  
انمحت ابتساماتي وعاد غضبي يحاول المرور في حمرة الكبت على وجهي  
وبعض الحدة تسريت لصوتي وأنا أقول بصرامة:  
- بس انت كده بتأذيها أكثر!

لما تمدها بتقوية صورتها الذاتية عن طريق مغازلة خارجية عابرة!  
كل اللي حتعمله إنك تحولها لمتسولة للقبول والغزل الخارجي من الناس  
أكثر!

الناس اللي حيتركزوا مع الوقت في شخص واحد هو إنت!  
تمام زي ستات كثير صورتهم عن نفسهم بيستمدوها من رأي الحبيب أو  
الزوج، وبالتالي حالتهم النفسية بتتمرجح تبعًا لهواه في المغازلة والمدح!  
قد أصابني بصيص اندهاش حين رأيت ملامح حسن يظهر عليها بعض الأسى  
وهو يتلعثم متأسفًا:

- والله ما قصدت، أنا بس حاولت أتسامى وأساعد نفسي بتوجيه طاقتي  
وأساعدها بدعم مؤقت!  
منحتني أمارات التحسر المطلة في كلمات حسن طمأنة كافية لألتقط خيطًا  
جديدًا لبدء الجلسة:

- اسمع يا أبو على، عقدة الدونجوان اللي جواك لما تبتدي تحس إنك  
بتقاومها، وإنها خلاص حثدوب وتزول، حنلبس ساعتها قناع الخير والنفع  
عشان تفضل حية كنوع من التكيف..  
يعني تاخذ شكل مساعدة الناس أو ممكن المجاملات أو يمكن حتى الدعوة  
الدينية!

ببساطة سيكون منطلقها ساعتها برده إنك تخلي الناس تدور في فلكك وفي  
نفس الوقت تبقى هربت من الشعور بالذنب وجلد الذات!  
يعني اللي حضرتك بتسميه (تسامي) ممكن يكون مجرد قناع لبسه  
الدونجوان أو نوع من النفاق النفسي!

والدليل إن المساعدة دي حتبقى أوضح بكثير مع البنات!  
كان الفتى يومئ برأسه حينًا وبشرد حينًا ويتطلع إليَّ باهتمام وكأنه حصل  
لتوه على فهم متجاوز لفهمه لذاته، يمتزج داخله الإحباط وشعور بصعوبة  
التخلص من إدمانه التعددي اللصيق مع كثير من الأمل النابع من وجود زاوية  
رؤية خارجية تتمثل فيَّ كطيبه!

ويعدني حسن ألا يتعرض لإسراء ثانية!  
إسراء التي جاءتني في جلستها التالية تروي لي كيف أنها ذهبت ليلتها تتأمل  
جمالية يديها!

تخبرني أنها شعرت أنها للمرة الأولى تنتمي لقيد الحياة! بعد أن نهشها  
الاكتئاب لثلاثة أعوام كاملة،

فكها الواسع ووجهها الطويل وبشراتها الوجيهة كانت كما فقه حسن فطرياً  
بالفعل قد تمزقت حولها صورتها عن نفسها!

جاءتني وقد تخلت نسبياً وللمرة الأولى بفعل كلمات حسن عن ملابسها  
الفضفاضة التي كانت تخفي وراءها وزنها المتزايد نتاجاً لشهيتها الاكتئابية!  
إن كثيراً من الجرامات المتراكمة في أجساد الفتيات في بلدانا هي نتاج  
الاكتئاب لا الشره!

فشهية المرأة انفعالية فهي تأكل حين تشعر بالإحباط أو الخواء النفسي.  
المرأة في الغرب تسكر بالخمير حين تشعر بالسوء، وفي بلدانا اضطراراً  
تسكر المرأة عبر مزيد من الحلويات!

كلمات حسن العابرة التي لم يكررها بطلمي منحت (إسراء) أسبوعاً مشرقاً  
لم تمنحها مثله كافة مضادات الاكتئاب السارية في دمائها!  
ولكن لم يكن الأمر مطروحاً للإمكان، فتلك السعادة المؤقتة التي يمنحها  
حسن لفتاة ما كانت تحمل بؤساً منتظراً بيددها بيده!

تحدثنا تلك الليلة طويلاً عن أبعاد أزمته، كيف كان يرى في كل أنثى عشيقة  
محتملة، ما إن يراها حتى تبدأ سيناريوهات ذهنية في تخيلها بالجوار. كحبيبة  
في أرقى الخيالات وربما أكثر في خيالات أخط!

تناقشنا في أولى خطوات التعافي من الدونجوانية المقيتة والحصول على  
علاقة صحية عبر التحرر من أن يرى في كل امرأة تعبر بحياته فرصة تزواج  
محتملة!

بأن يجبر ذاته أمام كل عابرة أن يصنف لعلاقته بها تصنيفها النفعي  
والبراجماتي والمتمركز حول الحاجة الاجتماعية.  
فتلك عميلة لا أكثر، وتلك بائعة، وتلك زميلة عمل، وتلك صديقة.  
ويأخذ على ذاته عهداً ذكورياً لا ينخزل، بالألا تغادر أيهن توصيفها في أخيلته  
ناهيك عن واقعه.

يدخلهن جميعاً في تصنيفات شخصية من المحرمات تنزيهاً!!  
محارمه التنزيهية.

يمنح القلب ياساً لا سبيل لمداواته منهن.  
يلقي حسن دعابته في نهاية الجلسة وهو يللمم افتضاحه النفسي الموجه  
متوجهاً نحو الباب وهو يقول:

من النهاردة البنات عابرات محرمات مش قصص حب محتملة!!  
والسمك صحاب.. مش طواجن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأذكر في جلسة..

- عندي تساؤل شاغلني..

إِزَّاي انت كدكتور نفساني مضطر إن بعض الأوغاد اللي كان لازم بالعدالة  
المجردة إنهم يعانون ويلات جرائمهم.. يجولك وانت مجبر إنك تساعدهم  
عشان يحسوا إحساس جيد عن نفسهم.. وكمان تعلق لهم السعادة والسلام  
النفسي!!!

ويمكن ضحاياهم غرقانين في المعاناة ومايقدروش يتحملوا ثمن لقاءك!  
هل كان حسن حينها يوارى إسقاطاً خارجياً عن قصته في صورة تساؤل  
عابر.. أم أنه كعادته كان يلخص مأساة أخرى من مآسي ممارسة الطب  
النفسي ويقذفني بها!

- إنت إِزَّاي بتبقى مجبر تسمع وتتودد وتبتسم وتهزر لساعات مع ناس يمكن  
لولا شغلك مكنتش حتقبل تسلم عليهم حتى!!

وكعادة جلساتي المكررة معه لم تكن نتقيد بمواقيت ولا تكبلنا مناهج نفسية  
وأهداف إجرائية بكل جلسة.. كنا نبحر سوياً في كل شيء..  
أخذت أفصل له كيف لا يحق لي مطلقاً كطبيب نفسي ألا ألوث تعاملاتي  
المهنية بأحكام أخلاقية..!!

- مش بس كده يا ابو على.. أنا كمان مجبر على أن أجاري الناس أحياناً في  
أوهامهم وعقائدهم لو مكانتش ذات تأثير ملموس في إشكالاتهم النفسية..  
فاتحرر لليبرالي.. وأتحنبل للسلفي.. وأتعمد للكاثوليكي.. وأتعلمن للوضعي..  
وأتروحن للمتصوف..

- أنا مستغرب بعد كل ده إنك لسه عارف نفسك!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يرهقني كثيراً مواجهة مصطفى بحقيقة مشاعره تجاه حسن وكونه قد  
انجذب لسطوته وجرأته الذكورية المتبجحة وأن الصداقة بينهما لم تكن  
سوى تحويل متقنع لمشاعر انجذابه تجاهه!  
واتفقنا بعد اقتناعه بضرورة انسحابه التدريجي من مشروع الصداقة  
الزائفة المتبرعمة حيث الحياد مع حسن لم يكن أبداً خياراً مطروحاً قابلاً  
للتنفيذ الواقعي.

ربما أصاب حسن الإحباط حين استشعر بحساسية استقباله المفرط هذه  
الفجوة الناشئة بينهما بناءً على توصياتي لمصطفى الذي نفذها حرفياً، فأخذ  
يعامل حسن بنوع من اللامبالاة الظاهرية والبرود المفتعل الذي لم يكن  
ليدفع مثل حسن بعجرفته إلا إلى الالتفات عنه وقتل هذه البذرة الناشئة من  
الصداقة وأنا أتنفس الصعداء ارتياحاً مع اتساع الهوة بينهما لإيقافي قبلة  
موقوتة أخرى قبل انفجارها في نفوس بعض رواد عيادتي!

تراجعت عن قرار بتغيير موعد حسن لئلا يتفق مع جلسة مصطفى في اليوم  
فيتقابلا بصالة الانتظار، فقد وجدته قراراً كان ليشير فضول حسن وربما يؤذي  
حساسية مصطفى المتحرجة.

وقد مرت عاصفة أخرى من عواصف أنواء نفس حسن المثيرة للمتاعب  
دون كبير أثر.  
أتساءل داخليًا عن تلك الرحابة غير المعتادة مني التي تجعلني أقوم برفع ما  
أفسده حضور الفتى العابث وما يخلفه وراءه من ركام!  
هل أستغفر عبره من ذنب ما، أم تراني أمحو عبر إصلاحه شيئًا مني أو  
أتحرر من رغبة دفيئة داخلي.  
للمرة الأولى ألحظ أن انخراطي في الطب النفسي ومداواة الآخرين ربما  
كان وسيلتي لأصمت تساؤلاتي عني ومواجهتي لنفسني، وأتعامى بعملائي  
عن عطب روحي أنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأتذكر في جلسة أخرى..  
- يعني انت عايزني أسيب حقي باسم التحكم في الغضب!!  
هكذا يسائلني يومًا بحماسة الهرمونية المفعمة بتنافسية الذكورة.. لأجيبه  
بهدوء وأنا لا أخفي إعجابي بالاسم بتألق روحه المشعة..  
- إنت عندك ما يكفي من الدوشة والضوضاء جواك وحوالك.. ليه تضيف ليها  
صراع جديد؟!  
الغضب بيئذك انت أكثر ما يؤذي اللي انصب عليه.. واكثر ما يخفف عنك..  
وعمر حالة (حرقة الدم) ما بتزول بنقاش حاد..  
بل بالعكس.. إنت بتمنح اللي استفز غضبك فرصة أكبر إنه يسرق منك راحة  
بالك وسكينتك الجوانية.. ويسحبك لأرضه.. أرض التوتر والضيق  
والاضطراب..  
ويسرق منك أكبر كنوزك.. سلامك النفسي!!  
بعض اللامبالاة هي الانتقام الأعظم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأتذكر بجلسة جماعية أخرى..  
يسائلني الفتى في مكر:  
- هو لو قايل قتل هابيل..  
مش معنى كده إن كلنا أبناء القاتل..  
اتسربت لجيناتنا خطية آدم.. وخطية ابنه..!!  
- إمممم.....!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جلسات حسن الأكثر متعة لمثلي.. والأخف على روحي.. وربما  
الوحيدة في جدولتي التي كنت لأرحب أن أحضرها طوعًا ودون مقابل.. وكان  
مثل ذلك السجال الفكري والتلاقي الروحي العميق مع شخصية بدسامته  
والتواءاته يصعب على أن أعتبره محض رقم في عدادات حالاتي وإضافة  
أخرى للفيزيتا المتوقعة بيومي!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



إذا عشت طويلاً بما يكفي.. فستجد أن كل انتصار لا محالة سيتحول إلى هزيمة

(سيمون دي بوفوار)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



كان يومًا اعتياديًا بالعمل.. الثلاثاء الروتيني..  
ولكن على المستوى الشخصي كنت أحظى بيوم سيئ..  
توترات عائلية لغيابي الدائم انشغالي.. وانفعال عصبي قد انفلت زمامه أصاب  
أحد الزملاء بالمستشفى إعصاره...  
لا أدري هل كان ينقص اليوم حادثة بسيطة بالسيارة تكلفني (رفرقًا)  
وساعتين مهدورتين من يومي!!  
لماذا لا تأتينا الكوارث إلا بنظام الحزمة (باكيدج متكامل)؟!  
حتى (الموناليزا) تبلى.. والطبيب يمرض.. ولا عجب أن أجد نفسي كل بضعة  
أشهر أفقد القدرة على تحمل المزيد من الحكى!  
وأضيق بتكتلات القصص التي تلقى على كنبتي كل يوم..  
أجد نفسي أتمنى لو يخرس كل شيء لبعض الوقت.. يمنحني فرصة  
لأتحسس ملامحي وأتنشق بضعة أنفاس دون تحليل أو تقييم أو برامج أو  
مهارات ونصائح!  
كان (مصطفى) يروي لي تفاصيل أسبوعه المنصرم..  
لا جديد تحت شمس النفوس.. قليل من الأحداث وكثير من الدراما  
المصاحبة لها..  
لأجد انعزالي الظاهري ينهار فجأة.. يصيبني شرود غير معتاد.. حرارة بخلفية  
دماغي.. وبعض الضيق الذي يجبرك على الوقوف والرحيل.. وتغيير الحدث  
الدائر حولك..  
لا أنكر أنني مذ بدأت ممارسة الطب النفسي قد صارت تحكمتي بانفعالاتي  
أكثر فاعلية... وكأني صرت أحمل لوحة مفاتيح لدواخلي.. أغلق ما أشاء  
وأعلى نغمة ما أشاء مني..  
قد صار كل شيء داخلي مرتبًا ومنظمًا وتحت السيطرة الكاملة..  
ولكنه القدر يأبى دومًا إلا أن يذكرك ببشرتك كل بضعة أشهر.. فتتعطل  
لوحة مفاتيحك لبضع دقائق.. ويغمرك شعور ما..  
وكأنك قد (هنكت) من الداخل.. وتحتاج إلى إعادة تشغيل سريعة..  
كانت تلك اللحظات الاستثنائية العابرة التي يستطيع كل طبيب نفسي أن  
يروي لك بعضًا منها تهمس في آذاننا دومًا أننا سنبقى بشرًا وستبقى دومًا  
أقاليم مظلمة من نفوسنا لم تزل تتمتع بحرية الحكم الذاتي!!  
لا أتذكر يومًا.. استأذنت فيه أثناء جلسة ما لأذهب لدورة المياه.. أو لأتنشق  
بعض الهواء..

ربما أجتهد تبريرًا لئلا أنسب الأمر لحبكة قدرية قد قررت لحظتها إخراجي من جلسة (مصطفى) نحو الحمام المجاور لغرفة الكشف!  
لا أستطيع أن أنكر.. كما لا أستطيع أن أعلن أبدًا بوصفي طبيعيًا نفسيًا عمليًا..  
أن في منطقة ما من ذهني كنت أشعر حدسًا أن كل شيء يتم من خلال  
حبكة كبرى.. تتداخل تروس ماكينة عملاقة مبرمجة مسبقًا لتمنحنا منتجًا  
حياتيًا يوميًا بعد يوم..  
وأن لا سبيل للفكاك من هذه الميكنة التي أعدها مخرج عبقرى غير متوقع..  
ولا يكرر مشاهدته!!

ربما لم يدر يوميًا بأكثر هواجسي شطحًا.. أنى وأنا أفتح باب الغرفة برفق  
سأرتطم بأحد أكثر مشاهد تلك الميكنة التواءً وصدامية!  
فبعد خطوات بسيطة تجاه الحمام ظهرت أمام عيني مساحة من غرفة  
الاجتماعات المجاورة التي كنت أجري فيها لقاءات العلاج الجماعي (الجروب  
ثيرابي).. ربما وكأني أطلعها للمرة الأولى..  
مظلمة تتسرب إليها مساحات ضوئية من أنوار صالة الانتظار..

لتسقط مساحات الضوء المتسلل مع نظري على جسد (حسن) و(سماح)  
سكرتيرتي ملتصقين وقد شبك يديها بيده وراء ظهرها وينهل من وجهها  
ورقبتها قبلات مشغوفة نهمة... وهي تميل رأسها للأسفل ليلتصق بالحائط  
مغمضة العينين في تلذذ ربما لم أشاهده من قبل على وجه امرأة!!  
هل تعالت أنفاسي للدرجة التي جعلت حواسهم المؤججة بالاشتهاء تدرك  
وجودي على باب الغرفة.. أم هو ظلي الساقط جوارهم على الحائط قد  
نزعه من يديه كالملدوغة.. تقفز إلى الوراى وقد تحول وجهها لمزيج عجيب  
من الارتباك والخوف!

أما حسن فوجدته يلتفت نحوي بهدوء.. وكأنه قد نزع للتو قناعه الجديد...  
يتأملني بذات الوجه الذي كان يرتديه بلقاءاتنا الأولى..  
ثم يتقدم نحوي باستهتار متعمدًا تغييب صورة سماح التي تلملم ملابسها عن  
ناظري وملاً مساحات رؤيتي بمشاهدته وحده..

ثم يتكئ بكوعه على زاوية الباب وكأنه يحرض على فرض سيطرته على  
مدخل الغرفة الملوثة بلهثات سماح التي انتقلت لتوها من الاشتهاء نحو  
الإجلال!

هل أجمني يومي المزري.. أم هي حبكة الأقدار تحملني عنوة نحو الصمت  
بصدامية المشهد.. أم ترى هي اتزانة رجل لا يكثرث باختيارات حرة  
لشخصين لا يملك عليهما سلطة ما..؟!!

ببساطة لم أستطع أن أحصل على كلمة واحدة تناسب موقفى.. ولا تشعل  
الوضع بشكل يلفت انتباه (مصطفى) العميل المنتظر بغرفة الكشف..  
ربما هي خشية نفعية على (سمعة) عيادتي من تلوئها بإحدى حماقات حسن  
غير المتوقعة..

وربما أعترف أنني كنت لا أجد بذهني حينها سقفاً لما يمكن لحسن أن يفعله الآن إن هاجمته بكلمة ما.. فقد كنت أمام رجل تلمع بعينه حقيقة وحيدة.. أنك أمام رجل ليس لديه ما يخسره!  
- إيه يا دكترة.. إنت شفت عفريت.. ماتخصش كده.. إنت أكثر واحد عارف اللي فيها!  
أعذرنى بقى.. أصل الجلسات بتطول عندك.. وأنا عندي حساسية من الملل..  
كان حسن يلوك كلماته بهدوء مستفز وعيناه لم تلتفتا عن مركز عيني.. وعلى شفتيه كانت ذات البسمة المائلة التي اعتدتها!  
وكأنني أمام رجل متعدد الشخصيات قد أخرج لتوه من جعبته (مستر هايد) الماكر يتحداني بسفور..  
لم يكن أمامي بكل سلبية سوى أن أفسح الطريق للفتي وشريكته بهدوء وأنا أترجع إلى الوراء وأومئ برأسي في إشارة لكليهما بالرحيل..  
هل كنت أمنح الفتى بأرجحية انتصاره الأخير أمامي.. حين اصطاد أحد فرائسه مما يظنه بقعة من مملكتي.. ويواقعها داخل حدودي!  
تساؤل وحيد ألقيته على حسن وكأنني بحق كنت أنتظر منه إجابة..  
ولم يزل يتطفل على ذهني كلما أعدت لي (هدير) سكرتيرتي الجديدة فنجان قهوة البداية بعيادتي.. وكأنني صرت متلبساً بهذا (الFLASH باك) الدائم.. كارتباط شرطي لا سبيل إلى الفكك منه..  
وأنا أناديه على باب العيادة راحلاً.. وهو يلتفت إليّ كعادته غير مكترث:  
- حسن!

تفتكر إن النبي آدمين فعلاً ممكن يتغيروا!

2 مايو 2016

الإسكندرية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



# متميزون للكتب النصية



## احصل على حصرياتنا

# الفهرس..

---

## عن الروايق..

(1).

(2).

(3).

(4).

(5).

(6).

(7).

(8).

(9).

(10).

## الفهرس..